د . يوسف عز الدين

قلب على سفر



دار الشروق

قلب على سفر

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX: SHOROK 25779G

د . يوسف عز الدين



دار الشروق



مقدمة الطبعة الثانيـة

الفن القصصي من الفنون الجميلة التي دخلت العالم العربي حديثا بشكلها الغربي وقد اصبحت وعاء لاحتواء آراء المفكر والناقد الاجتماعي والتيارات النفسية والبواعث الذاتية للمجتمعات الإنسانية .

وقد حرصت فى هذه الرواية أن اتجاوز مرحلة القصة الحديثة التى سار على نهجها الكتاب فجمعت فيها الرواية والقصة والمقالة والحوار الداخلى والعوامل النفسية والاشارات اللغوية والتعبير باللفظ الموحى والحوادث الدالة على خطوات المجتمع العامة ، سواء فى السرد أم فى مسيرة ابطالها أو الاستيطان الداخلى فى الحوادث .

ولم يلتفت أكثر القراء إلى مافيها من رمز موح واشارة إلى حدث عام وحسبوها رواية متعة فنية وقصة احداث غرامية . دون أن يسبروا غور الهيكل العام لها وفهم الاجزاء الصغيرة والكبيرة الموحية .

وقد كتب عنها زملاء أفاضل وقابلوها بقبول حسن واطراء كريم فقد كتب عنها الدكتور حسن الشماع بحثا مطولا فى مجلة عالم الكتب كما كتب عنها دراسة مقارنة الدكتور رضا حوارى وعقد لها الدكتور عزت عبد المجيد خطاب ندوة تحدث فيها الدكتور حسن الشماع وناقشه الزملاء الأساتذة الدكتور منصور الحازمى والدكتور حسن ظاظا والدكتور شكرى عياد والدكتور عبد المنعم اسماعيل وتلميذى عبد الله الفيفى .. أضافة إلى ماكتبه الزملاء فى الجرائد السيارة فلهم

مني أكرم التقدير والشكر على مابذلوه من وقت وجهد .

وعسى أن تنال هذه الطبعة ما نالته الطبعة الأولى من القراء والنقاد من القبول .

د . يوسف عز الدين

فى مطار لندن

وقف جامدا صامتا يحدق فى ناحية واحدة . لا يريم عنها . وأطال التحديق فيها . فكانت تقاطيع وجهه كالجلد المدبوغ ليس فيه حياة ولا حركة . شرود وحيرة . كأنه ينتظر وصول إنسان . إنه يحدق فى سلالم المطار . أطال التحديق .. وما طرفت له عين وكأن العينين قد ثبتتا فى المحجرين .

هل أوقظه من هذا التحديق ؟

خشيت أن تهز المفاجأة عواطفه . إنه صديق حبيب من أصدقاء الدراسة الجامعية . أراه فى هذا الذهول فى مطار لندن . كان معروفا بالاتزان وما رأيته إلا والوقار يحف به . والرزانة تزينه .. إنه هو .. هو بعينه يقف بلحمه وشحمه . لم تغيره السنون لولا بياض الشيب الذى أخذ يسابق سواد شعره .

طلبت الشاى وأنا جالس فى المقهى الصغير أرقبه بقلب واجف وعين حيرى . وشربت كوب الشاى . وسرعان ما عدانى ذهوله . وبدأت أتتبع حركاته وسكناته . أو هكذا خيل إلى . لأنه لم يتحرج من وقفته .

كانت وفود المسافرين والقادمين تملأ رحاب الصالات حول حمالات البضائع المتحركة . وأزيز الطائرات الهابطة والمحلقة يصم الآذان . لكنه كان

فى دنيا أخرى لا يسمع فيها ولا تهزه ولعلها لم تدخل إلى خياله لتبدد وجومه . وتغير من وقفته وتحركه من سكونه . فقد غدا جزءا مسمرا من السياج الذى اتكأ عليه .

ساورتنى خيالات شتى فى الباعث على هذا السهوم وهذا السكون العجيب ولم أصطبر فقد طال وجومه . واستمر تحديقه . وما أنا ناولت الندل ثمن الشاى إلا ورأيته قد حرك يديه ثم أخرج ساعته ونظر فيها . ثم جرر جسمه . وسحب رجليه سحبا وكأنه عامل خرج لتوه من منجم لقلع الصخور . ثم استرخى بدنه وسار بهدوء ووقار وكأنه ملابسه تريد أن تفر من جسمه فرارا .

وقررت أن أتحدث إليه . فأنا فى لندن وأعرفها جيدا . وحرام أن يحدد الصديق من مساعدتى واتجهت إليه . وسرعان ماحث خطاه وترك المطار إلى ساحته الخارجية .. وفى الساحة رفع عينيه إلى السماء بعد أن نظر إلى ساعته أكثر من مرة . فرفت على محياه طيف ابتسامة تحولت إلى ضحكة ملأت أسارير وجهه وأشار إلى السماء وكأنه يودع صديقا يراه فى إحدى الطائرات المحلقة فى الفضاء الرحب . ثم اتجه إلى سيارة الشركة الراجعة إلى لندن .

تضاربت الهواجس فى نفسى واختلطت الخيالات فى ذهنى تبحث عن سره بعد أن شاقنى مرآه وتحول من شوق عارم إلى اللقاء . إلى رغبة عميقة فى استكناه هذا السر الدفين .

تركته فى عالمه الحالم الذى حسبته به سعيدا . تركته فى خياله المجنح ليعيش فى عالم رحب خلقه لنفسه وخيال حبيب يعيش فى دنياه . وقررت أن أتبعه

من بعيد وأترسم خطاه . عن كثب . فلما دخل السيارة أخذ المقعد الأول وأخذت المقعد الأخير.

جلس قرب الشباك . وسبح فى الخيال وعاد إلى نظرته الجامدة ووجومه العميق وأصبح قطعة جامدة من السيارة .

وقبل أن يتحرك الباص جلست بجانبه فتاة يفوح الصبا من أعطافها ويزهو الجمال فى صباها . ولم يكن الطريق قصيرا فتوقعت أن يتحدث إليها وهو زير النساء . أو تحدثه لأن الفتاة الغربية يلفت نظرها الشرقى الأسمر وتعجب به .. فرأيتها تحدثه أو تسأله شيئا .. ولكنه أجابها دون أن يدير لها رأسه إذ لم أر غير حركة الفكين السريعة وكأنه يرد باقتضاب وملل . ولم يخامرها اليأس وتحدثت إليه ثانية وثالثة ولم أر غير هزات رأسه ترد بعنف واقتضاب كأنها ذبذبة النابض .

وفى (اريل سكوت) أخذت السيارة تخفف من سرعتها . فوقف . وبلا شعور وجدت نفسى واقفا أنزل وراءه وأتبعه . أتبع خطاه من بعيد . وهو غارق فى همومه ووجومه وكأنه يحمل على عاتقه ما فى الدنيا من مواجع وآلام .

كيف تحول صديق الدراسة الشديد المرح السريع النكتة الجميل الضحكات إلى النقيض ؟ فما علمت عنه التزمت والتعقيد . إنه مثال البساطة والطيبة والرقة بين الزملاء فتعلق به أصحابه وأخواته لرقة أخلاقه وكريم سجاياه .

أخذت أتبع خطاه مسحورا مبهورا مثله ونسيت نفسى . فسار هو فى شوارع لندن وأزقتها . لم يكن يسير على هدى . أين يريد أن يذهب ونحن فى

(ايرل سكوت) ملتقى المواصلات ،لِمَ لَمْ يركب القطار الأرضى ؟لِمَ لَمْ يستقل السيارة العامة ؟ أيريد أن يسلى نفسه فى السير؟

لم إذن هذه النظرة الشاردة والحزن المقيم ؟ علام يحدق فى السماء بين فترة وأخرى ؟ ولماذا يكثر النظر إلى ساعته ؟

هل يستلهم السماء ؟ هل يدعو من الله ؟
هل أصاب صاحبى مس ؟
أسئلة كثرت . اختلطت فى ذهنى وأنا أسير فى أثره ..

أخذت تساورنى الشكوك . وتنتابنى مختلف الأفكار وبدأ الشك يتسرب إلى روحى ويهز كيانها . ووضع بينى وبينه سدا لا أقدر على اجتيازه فقد كبر الإحساس الغريب فى روحى حتى خيل إلى أن عملاقا يفتك بى ويضيق على الخناق فاغرقت فى الوجوم وشردت نظرتى ونسيت نفسى وذهلت عما يدور حولى وكأنى نمت مغناطيسيا وأنا أسير فى أثره من شارع إلى شارع ومن درب إلى درب ومن طريق إلى طريق دون أن أكترث لإشارات المرور وتخطيط عبور المشاة.وإذا بى أمر به دون أن أعى وإتخطاه دون أن أشعر فقد اضطرب سيرى واختلفت خطاى .

فما أحسست إلا وبيد تمسكنى من يدى وصوت يطفح بالفرحة والسرور يقول :

ـ على فين ؟
ثم نظر فى وجهى هادئا ضاحكا وقال :
ـ أتأتى من ورائى ولا ترانى ؟

وبلا وعى احتضنت صاحبي وسالت عبراتى وكأننى وجدته ثانية . والحقيقة وجدت نفسى فقد ضحك وقال :

ـ ما بك ؟

ـ إنها دموع الفرح باللقيا .

فاهتزت مشاعره وأخذ يقبلنى ثم يحتضننى .

قلت : ويحك ألا تدرى أن القبلات والأحضان فى لندن بين الرجال عيب .

ـ لتذهب تقاليدهم إلى الجحيم فإن فى عاداتهم وأخلاقهم ما يكون مدعاة سخريتنا ولكنا لا ننقدها لأنها أخلاق أهل الغرب وننظر إليها باحترام . ولطالما قلدناها وإن لم تتسق مع التقاليد العربية والعادات الإسلامية .

وسرت معه وقد شملنى السرور ، استعدت وعيي وقوتى لما عاد إلى مرحه وضحكته الحلوة البريئة وبدأنا نتحدث عن أيام الجامعة والإسكندرية وأيام الدراسة واستعدنا ذكرياتنا فى سفرات الجامعة ونكات الأساتذة والمعاكسات التى كنا نقوم بها . وما أجمل ذكريات الدراسة وأحلاها تلك التى لا يعرفها الطلاب إلا بعد أن يتركوا الجامعة ويعودوا إليها أو حين يلتقى الزملاء ، إنها أجمل الذكريات وأعذبها .

كان صديق قريب النفس والخلق من أخلاقى وروحى فشعرت بالراحة ونسيت حالته ونسى كل شىء فى لندن وعدنا إلى الماضى الحلو الجميل .

سار كامل فى الطريق إلى (كنزكتن) ولم يمر بالطريق العام . ودخل إلى حديقة (هايد بارك) الممتدة حتى قصر كنزكتن مقر أفراد الأسرة المالكة فقد

أهدت الأسرة المالكة إلى الشعب هذه الحديقة التى يتيه فيها الإنسان ويضل فيها حتى أبناء لندن .

ودخل الحديقة قرب « كونيزكيت » Queen's gate وأخذنى معه فى جولة فى حديقة الورد الجميلة وطاف بأرجائها وكأنه يمر بقدس من الأقداس وكان يقف آونة فيحدثنى عن زهرة أو يشير إلى وردة فهو يعرف أسماء هذه الأزهار معرفة الخبير وأسمع قوله دون فهم .

ثم مر بتمثال الملكة فيكتوريا وبيدها الصولجان فضحك وقال :
كم من ملكة ذهبت وكم من ملك مات ولم يبق غير الذكرى الحميدة .
قلت له :

أتدرى أن الإنكليزى يتفاءل فى عهد الملكات وأن أبناء الشعب يحبون عهودهن ويفضلونها على عهد الملوك فقد ظهر من التجارب الماضية أن الازدهار والتقدم والسلام كان فى عهد الملكات .

قال : المرأة جميلة ويجب أن يكون عهدها جميلا .

قلت : المرأة وفية .. وهذا .. وأشرت إلى تمثال البرت الشامخ زوج فيكتوريا ـ وقلت له هناك الوفاء فى قاعة ألبرت الموسيقية ومتحف ألبرت فقد خلدت ذكرى زوجها فكم من الرجال خلد الزوجات إذا استثنيت تاج محل فى الهند ؟

قال : المرأة غادرة خائنة سرعان ما تستسلم للمغريات وللمناصب وللمال أما الرجل فهو الوفى على العهد . وخرجت الكلمات مثل الطلقات من فيه .

ـ لا يا صاحبي يجب أن تكون المرأة وفية لأنها هى التى تحفظ النسل ومتى خانت ضاع النسل ووفاؤها حماية للأبناء وعناية بهم فهى تعانى تسعة شهور وترضع . أما الرجل فمن طبعه الخيانة إن كان عمله يسمى خيانة لأن الرجل يقوم على إكثار الجنس البشرى والمرأة هى التى تحافظ عليه وتصونه . وما أن وصلنا بحيرة صغيرة حتى رأينا البط مع صغاره يسبح فيه فى هدوء وثقة ويقترب من الناس فيطعمونه ولا يهرب منهم فهو أليف وكل الحيوانات هنا أليفة لا تخاف الإنسان ولا تهرب منه لأنها تلقى من العناية والرعاية ما يحلم به الإنسان فى أوطاننا .

فنظر إلى والإعجاب يملأ قلبه ويطفح فى عينيه قال انظر يا أخى إلى هذه الألفة الغريبة . لا الطير يخاف ولا البط يهرب . العصفور يأكل من أمامى باطمئنان فلماذا تخاف الحيوانات فى أوطاننا منا وتهرب ولماذا نحاربها ونقتلها ؟

اسمع ياكامل : -

نحن قاسينا من الاستعمار البريطانى ما قاسيناه لأننا شعب ضعيف ولكن الإنكليز فى بلادهم لا يقدرون على هضم حقوق أبناء أوطانهم لأنهم سوف يثورون على الحاكمين ولوكنا شعوبا قوية لما تجرأ الاستعمار على بلادنا .

والحاكم من الشعب الذى يختاره بكل حرية ودون أن يتدخل إنسان فى الاختيار ويحس الشعب بأن المشاركة فى الانتخاب واجب لا يقصر عنه . ومتى أحس بأن الحاكم خرج عن خطته لم يعد انتخابه .

قال أجل أعرف قصة تشرشل الذى كسب النصر لبريطانيا بالجهاد والنضال وبالدم والدموع وكانت انكلترا وحدها ولكنه انتصر وفرض شروطه

على الأعداء . وفى الانتخابات سقط تشرشل لأن الشعب خاف منه أن يفتتن بنفسه وقال له نحن نريد رئيسا للسلام وقد انتهى عهد الحرب .

وهذا ما صنعه عمر بن الخطاب حينما عزل خالد بن الوليد بعد أن كثرت انتصاراته فخشى أن يظن أن النصر جاء بقوته لا بقوة العقيدة والإيمان . قال أذكر أن بعض قواد الفرق أخمد ثورة فى إحدى جهات بلاده فى قطر من أقطارنا ولما عاد إلى العاصمة أحدث انقلابا لأنه ظن أنه فاتح وأن عمله منة على الوطن ونسى أن من واجبه الأول هذا العمل فقد رباه وصرف عليه وأسبغ عليه لهذا اليوم . ولو كان الشعب قويا لما تجرأ أمثال هذا على العمل والتدخل فى الشئون العامة .

كان صاحبى ينظر إلى الحديقة العامة وقد سار الأحبة زوجين زوجين فهذان يحتضنان وهذان يقبلان وهذان مضطجعان على الأعشاب الجميلة فقال بلا شعور :

كل الأحبه اثنين اثنين وانت يا قلبى حبيبك فين .

ضحكت وقلت : كثيرات الحبيبات .

وأخذنى إلى حديقة جانبية قرب متحف لندن وكأنها روضة من رياض الجنة . وسرنا فى ممشى وجدانى شاعرى مغطى بالأشجار التى تحاول الشمس أن تتخللها فتصدها الأوراق الملتفة . كان الصراع واضحا بين الشمس المشرقة وأوراق الشجر وكانت هناك فتحات بين الأشجار تطل على بحيرة جميلة صغيرة فيها أزهار مائية من مختلف الأصناف الرائعة الجميلة وحولها أصص متباينة الألوان والأشكال والهندسة .

والتفت إلى وقال :

ألا تعتقد أننى أعرف لندن خيرا منك ؟

قلت : أشهد أنك تعرفها ولكن لا أظنك أكثر منى .

مررنا بمتحف لندن وقال ألا تريد أن تراه ؟

قلت : رأيته فهو متحف الأسرة المالكة وملابسها المتنوعة .

تركت صاحبي يتحدث وتركته يأخذنى إلى حيثما شاء حتى كدنا نترك الحديقة ونعبر الشارع العام .

قال : أتدرى أن أحد مواطنيك قد دهسته السيارة هنا وكادت أن تقتله .

ـ ولماذا لم يعبر عن الطريق المخصص للمشاة وقد خططت الأرض ووضع على الجانبين الأنوار الصفراء لتنبيه السيارات من بعيد ووضعت هذه الخطوط فى مكان يسطع فيه نور الكهرباء .

فلم يجب وقال :

لو أنه عبر من هنا وصدمته السيارة لنال السائق أشد العقاب إذ لا يمكن للسائق أن يمر بالسابلة عندما يضعون أرجلهم على الخط الأبيض ولكن صاحبك سوف يؤدى تعويضا للسائق لأن السيارة أصيبت بأضرار وهو فى المستشفى والغريب أنه يلوم السائق لأنه لم ينتظر وقال :

لماذا لم ينتظر ؟ ! وماذا عسى أن يحدث لو تأخر ـ فهو يفرض النظام . بل نحن نكسر النظام ونتباهى فى هذا .

فوقفت على الرصيف وضحكت حتى نبه ضحكى المارة الذين لم يألفوا الأصوات المرتفعة ..

وقلت له :

ليتك تدرى كم شارع قطعت وكم إشارة خالفت وأنا أتتبع خطاك .
خطاى أنا .
نعم خطاك .
وأين كنت ؟
وراءك ...
ورائى من ايرل سكوت ! !
لا !
أين ؟
من المطار .
أرأيتنى تائها فى أزقة لندن وحسبتنى مجنونا .

لا بل رأيت جنونك وأنت تشير إلى السماء وكأنك تناجى ربك . حسنا حسنا .

قال فى ابتسامة حلوة هادئة تأسر القلب وتملكه «لولا أنى رأيتك لسرت حتى الصباح فى شوراع لندن» .

لماذا ؟ وخرجت الكلمة بانفعال عميق واستغراب صادق .

هل كنت تسير فى درب الذكريات الجديدة . فقد كنت فى العام الماضى فى لندن . وإن لم نلتق .

ليست لى ذكريات فقد وأدتها منذ أن عدت إلى موطنى وركنت إلى العمل وإلى لقمة العيش فأنا مهندس ولولا أن كليتك مقابل كليتى لما تعرفت عليك .

أجل كنت تحضر حفلاتنا من أجلها ؟ ! فلها الفضل فى أن تعرفت على لا الكلية .

فضحك وقال : إنها بخير وماتزال تسأل عنك فى كل سفرة . وعاد إلى حديثه :

أعمال فى الهندسة تستغرق كل وقتى وهو موزع بين الزبائن والاستشارات وبين تلاوين من المغامرات والذكريات . وأحسست بأن صاحبى عاد طالبا فى الجامعة عندما برقت عيناه بالسعادة وكأن قلبه عاد يتذوق أفاويق الهنا . فحلا حديثه وبدأت شفتاه تفصحان وتتلمسان الذكريات لينعم فى حديثه وكانت كل جارحة من جوارحه سعيدة هانئة رضية فقد عادت نسمات الرواء إلى روحه وومضات الأمل إلى قلبه . إنه واضح الألفاظ حلو النبرات ، جميل الحديث وكأن قلبه كان بين شفتيه يتحدث بفرح وغبطة وسرور . عاد إلى السنين الطويلة التى مرت كالحلم الجميل والهواء العذب البليل . عدنا ثانية إلى الذكريات العذاب وكأنما لا نريد أن تكون لها ضرة أو منافسة .. وما أجمل أن يسترد الأصدقاء أيام الشباب الحلوة بطراوتها وعذوبتها فكل شىء يبدو حلوا وأنسام العمر ترف بليلة من جديد وتنسى كل ساعات المحن ولا تبقى ساعات الهموم .

إنها أيام الشباب حلوة ذكرياته ترف كالحلم الجميل فى ليل الهموم وكالصحة فى جسم العليل والأمل فى بحر يهدد الراكب وباخرته فتسرى فى الاوصال نشوات يحس بالرضا من وجودها والخدر السعيد من إعادتها .

قال الراوى

فى حجرة من شارع (كلارنى كارد كاردن) مطلة على نهاية الشارع ، فيها كل ما يحتاج إليه إنسان يعيش منفردا ، حمام صغير وقطع أثاث جميلة أنيقة وسريران وما ينبغى للسريرين من متاع .

وفى صدر الحجرة مدفأة كانت توقد بالفحم الحجرى ثم حولت إلى مدفأة توقد بالغاز عليها صورة فيها أكثر من إنسان بحجم (البوست كارت) فى إطار أكبر من حجمها مرتين وانتشرت الكتب والأوراق دون ترتيب ولا أناقة . ولما ألقيت النظرة السريعة على حجرته قال . إنها جميلة ، قلت من خير حجر الدراسة فى لندن .

قال : عشت فيها سنتين من أحلى سنى دراستى . ومازلت أحن إليها ولذلك كلما حضرت إلى لندن حاولت الحصول عليها أو على أخرى فى الشارع نفسه .

ـ لابد أنها عبقة بالذكريات .

ـ حلوها ومرها وغرائبها ومتناقضاتها فكم سهرت فيها حتى الفجر أدرس وأحضر ، وكم سهرت فيها إلى مطلع الشمس أقضى نوازع أيام الشباب فما غلبت لذة على دراسة وما غلبت دراسة على لذة . كنت أمتع نفسى حتى إذا

بلغت الحافة من تهديد واجباتى الجامعية أمسكت وعدت إلى مكتبى ونسيت لذتى حتى إذا تهاويت وكدت أنهار من شدة العمل وكثرته حولت أيامى نحو السبيل الثانى .

أنا إنسان عرفت حلو الحياة وشهدها وتمتعت بأطايبها فما كنت يوما وحيدا .

ونظرت إلى ركن لم أكن تبينته منذ دخلت الحجرة فوجدته حاويا أنواعا من المشروبات الغربية والشرقية فمن عصير التفاح والبرتقال إلى النبيذ بأشكاله وألوانه إلى البيرة والصودة .. إلى ..

قلت : إنه ذخيرة وكأنك تخشى حصارا حربيا .

ضحك وأشار إلى خزانة وجدت فيها أنواعا مختلفة من الأطعمة المعلبة من لحوم وبقول وفواكه .

قال : أتدرى أننى أحيانا أبقى أسبوعا أو أكثر لا أخرج من هذه الحجرة فهنا لا أحتاج إلى شيء . كل شيء طوع رغبتى وأنا أجهز ذلك أسبوعيا .

قلت له : أنتم فى مصر لا تعرفون اختزان المواد فمن أين جئت بهذه العادة .

ـ إنك وقد عشت فى الإسكندرية والقاهرة تعرف الفلاحين فهم يخزنون كل شيء عاما عاما .. والإنكليز هنا يشترون الأشياء يوما بيوما أو أسبوعا أسبوعا لأنهم أمنوا على أنفسهم من الحصار والاحتكار . وأردف قائلا :

أتدرى أن ملكة بريطانيا حين زواجها لم تجد خلال الحرب العظمى

ما يكفيها من بطاقات لشراء جهاز العرس لأنها لم تكن تعطى إلا ما يعطى أى فرد من الشعب فانهالت عليها التبرعات من كل جانب حتى سدت البطاقات جهاز العرس .

طال انتظارى وضاق صدرى لمعرفة سبب وجود صاحبى فى المطار الذى لم يشر إليه وتناساه .

قلت بدون مقدمة :

ماذا كنت تصنع فى المطار ؟ !

فنظر إلى وشرد . وحدق فىّ وبعد وجوم حسبته دهرا قال : سأحدثك . فلا تكن كثيرا السؤال . وأفهم الأمور كما كنت تفهمها ونحن طلاب .. وكأنه أحس بامتعاض داخلى ساورنى وإن لم يظهر على ..

أتريد الحديث من البداية ؟ أم باقتضاب ؟

فلم أجب إذ مازلت أسترجع وأفكر وأحدث نفسى فانتبهت إليه وقلت : لك ما شئت .

جئت من القاهرة لأقضى عطلة فى لندن أستأنف فيها الذكريات وأستعيد أيام الشباب وهمسات الوجدان وأروى ظمأ القلب والروح .

قلت عابثا : والجسد .. فلم يرد واستمر .

كان الجو جميلا رائعا والسفرة ممتعة فقد استمتعت بمناظر الغيوم وكأنها الأقطان المنشورة أو الأزاهير المبثوثة فى أعالى الجو ولا يكاد الإنسان يحس بالجلال والجمال إلا إذا اهتزت مشاعره من روعة عمل الخالق وقدرته وهو فى

الطائرة تنساب بيسر وسهولة فوق الغيوم حتى حطت بنا الطائرة فى فرانكفورت فى الطريق إلى كولون ودخلنا الجمارك والفحص الطبى فألفيت أحد المصريين الذين لا يعرفون غير العربية محجوزا ولا يعرف كيف يفصح عن نفسه ولا يعرف الألمان بالطبع اللغة العربية كان منظرا لطيفا وأخونا المصرى يخرج من جيبه أوراق النقد ويشير إليها وموظف الصحة يؤشر على ساعده وأخذته إلى الطبيب وتحصن ضد الجدرى ثم أخذته إلى طائرته وأنا أعجب بهذا المجازف كيف يصل إلى هدفه ؟ !

ولما عدت إلى طائرتى كانت فى الجو وقد تركتنى فى الأرض .

كنت مطمئنا كل الاطمئنان على حقائبى لإنى أعرف دقة الغرب وحرص الغربيين على أمتعة المسافرين وراحتهم ولما ذهبت إلى استعلامات الشركات قالت إن الحقائب ستجدها فى كولون . إن أول طائرة تسافر إليها بعد ثلاث ساعات .. ورأت الموظفة علامة استفهام على وجهى فقالت ثلاث ساعات طويلة لا يمكن أن تبقى فى المطار وأنت ضيف الشركة .. فاستدركت رغم أن الغلطة غلطتى.. وضحكت وقالت: رضاكم هو أساس نجاح أعمالنا.. وأخذتنى إلى خارج المطار فوجدت سيارة الشركة خالية . ولم يطل بى الانتظار حتى دلفت فتاة . فقال لى السائق إنها ستقضى الساعات نفسها فى فرانكفورت لتسافر إلى كولون على الطائرة نفسها .

كان مظهرها غربيا وشرقيا . فيه سحر الشرق وجماله وجاذبية الغرب وأناقته . أسدلت شعرها حرا على كتفيها فزادها فتنة . لها قوام لدن رطيب كأنما صاغه النحات لها أقرب إلى فينوس وإن فاقها . عيناها الصافيتان تشعان

ذكاء وتطفحان رقة وحنانا . تهيمان فى جواء من الطيب الشذى ونظراتها وشعرها الكستنائى الطويل الذى يموج كلما حركت رأسها يضطرب إغراء فتبدو فيه ألوان شتى من تماوجه تركته دون قيد فلم تجدله ولم تعقصه فزادت هذه البساطة من فتنته وروعته ..

أخذت أتفحص جسمها وأنظر وجهها وأطرافها ، كلما أمعنت فى جزء أكتشف فيه من المفاتن جديدا ..

كانت تتحدث الإنكليزية باللهجة الأمريكية دون أن تبدو عليها أمالة الغريب وغنة الأجنبي ولعلها درست فى أمريكا أو إنكلترا .

غلبنى جمالها وبهرتنى فتنتها ولم تواتنى الشجاعة للتحدث إليها ولكن لابد من الحديث إذ لم يكن غيرى وغيرها فى السيارة الصغيرة وكنا متجاورين وأحسست كأنى أرض قاحلة أصابها وابل فامتصته كله وأخذت تنظر إلى السماء فاغرة الفم تستجدى المزيد ولفت نظرها إعجابى الظاهر وصمتى العميق وابتسمت ، فضحكت الدنيا وطربت لها وسرى دبيب من السعادة خدر روحى وكأننى لم أتحدث إلى فتاة من قبل فأجبتها على ابتسامتها وأردت أن أفتح فمى بشىء فخرجت الكلمات ولكنها ماتت قبل أن تخرج فسألتنى : من أين أنت !

فواتتنى شجاعتى ، وعدت إلى عادتى القديمة فى الحديث مع النساء فقد اجتزت العقبة وذهب الحجاب قلت مشاغبا ومداعبا ، وما زلت مأخوذا بلذة ما أرى وسعادة ما أحس وشذى ما أشتاق :

هل تقدرين أن تعرفى من أين جئت ؟

من الشرق ؟

جواب سليم ولكن الشرق واسع كبير.

أأنت من الشرق القريب أم البعيد ؟

قلت من القريب إليك !

لى أنا ؟

نعم وكأنك منه .

أنت عربى دون شك .

قلت : أحسنت يا حلوة .

فظهر الارتياح عليها وأخذت تزول الكلفة بيننا .

فأردفت : أعد .

قلت : أحسنت يا حلوة .

فابتسمت وقالت :

أترانى حلوة بالمعيار الشرقى أم الغربى ؟

فى المعيارين وبمعيارى أنا .

هل لك معيار خاص يخالف الشرق والغرب .

أجل ..

هل أعرف هذا المعيار .

قلت : فتنة الشرق وبراءته وحضارة الغرب وثقافته .

أنت من القاهرة .

أحسنت أحسنت أحسنت كيف عرفت ؟

سمعت أن المصريين جميل غزلهم ويفوقون الايطاليين..

فضحكت وقلت : كل الرجال يجب أن يحسنوا الغزل ومن لا يحسن الغزل فسوف يتعلم من عينيك ويتخرج على فتنتك وجمالك.

فضحكت ومالت على سرورا واحتك كتفها بكتفي ودارت السيارة دورة فزادت لصوقا بي وكأنها لا تريد فكاكا.

فسبحت بنشوة حبيبة ولذة غريبة وكأني أشم عطر العالم وأنتشى من لذة الدنيا كلها وشعرت بكياني يهتز وروحي تسرح في أجواء من الخيال الحبيب وكانت السيارة تسير بنا متجهة إلى فرنكفورت قلت لها :

ما اسمك ؟

أجابت وطيف ابتسامة حالمة على شفتيها :

قفزت في الأسئلة . لم تسأل عن موطني كما سألتك . أتريد اختصار الأسئلة والدرب ما زال طويلا أم تريد اسمي ؟

قلت : كلاهما .

قالت : من أسبانيا واسمي نورية .

نورية !!

وأحسست بالدهشة ترتسم على وجهي .

فقد شعرت بقشعريرة تسرى في مفاصلي وبخدر عميق يدب في جسمي كله وعدت أقول بلهفة وتعجب :

نورية !!

قالت : نعم اسمى نورية .

قلت : كيف يكون هذا اسمك وأنت أسبانية .

قالت : وأمى نورية ، وجدتى نورية ، وسأسمى أول بنت لى نورية . وسأوصيها بأن تسمى أول بنت لها نورية .

وسكتت لترى علائم الدهشة والاستغراب على وجهى ثم أردفت ببساطة ودون تكلف :

هكذا عادتنا . ولا أعرف كيف بدأت القصة واستمرت بدون اكتراث وأرادت أن تبعد القصة عن ذهنى وكأنها قصة خرافية لا أطمئن إليها أو أسطورة من الأساطير التى سوف أسخر منها إن لم أكن سخرت .

إنها العادات . ونحن أسرى العادات والتقاليد . فكم من عادة ورثناها دون أن نقدر على التخلص منها وعلام نتركها ما دامت لا تعود علينا بالأذى ..

ولم أجب وشردت فى حضارة العرب وفى فتوح المسلمين وبطولاتنا . ولم تدر كيف أثارت شجن الروح وأحزان القرون فى قلبى . وحلقت فى دنيا حلوة زاخرة بالفخر عبقة بالعزة والمكارم كيف وصل العرب على خيولهم وجمالهم إلى الأندلس وتركوا فيها أجمل الذكريات . أليست نورية من تلك الذكريات ؟ أليست العربية الأولى وكأن جدتها أرادت أن تخلد ذكراها بعد أن ضاع المجد العربى فكانت إرادة سيدة عربية أقوى من إرادة الجيوش والأسلحة والدويلات المتفرقة وملوك الطوائف المتنازعين .

آمنت نورية بتعليلى وسرها اهتمامى ولهفتى وقالت : أعرف أن أحد

أجدادى جاء من الجنوب وسكن مدريد فنحن أقرباء ثم نظرت إلى من طرف عينها وغمزت بحاجب واحد ويالها من غمزة ونظرة ..

ودخلنا فرانكفورت فما شاهدت مدينة أجمل منها فى الدنيا ولا أعرف أجمل منها اليوم .. ثلاث ساعات تجولنا فيها ودخلنا حديقة عامة فيها وكان الأحبة اثنين اثنين وأخذت ذراعى وتوسدت عليه ثم نظرت إلى فى الحديقة ونحن نسير تحت ظلال أشجارها وقالت :

عجيب .. هذا اللقاء هل كنت تقدر أن تلقانى ؟

لا ولكن الحياة حافلة بكل عجيب .. وجميل .. ولذيذ ..

أحقا ما قلت ؟ ثم ضحكت وقالت :

سحرتنى بلقائك ..

أجمل تحية أسمعها من سيدة أو آنسة ؟

قالت آنسة . وأردفت .

لم تقل لى ما اسمك ؟ وأصبحنا أكثر من المعارف بل أصدقاء منذ قفزنا حواجز الزمن وكأنى أعرفك من عهد بعيد . قلت دعى الزمن يسير واتركى الساعة جانبا ، نريد أن نختلس منه دون أن يدرى ودون أن ندرى ثم أردفت :

هل كامل ..هو الجمل قلت اختلط عليك فالجمل:(كامليوس درو مداريوس) والفرق بعيد بين الإثنين ولا يأنف العربى من أن يكون جملا بل

تمنى شاعر عاشق أن يكون جملا أجرب يعيش مع حبيبته الجرباء حتى لا يدانيهما إنسان .

قالت : إنه منتهى الحب والإخلاص إنها البساطة ولكنها الحب العميق الصادق .

قلت : لكن النقاد لا يرضون عن هذا الخيال لأنه أساء إليها .

قالت : دع النقاد وشأنهم وعش مع مشاعر الشاعر وأحاسيسه والجو الذى عاش فيه وما يحوطه به ثم احكم بعد ذلك ..

واقتربنا من بحيرة ضحلة جميلة فيها نافورة يتطاير منها الماء جذلا ويتسابق فى كبد السماء كأنه الحمائم البيض تشملها النشوة عندما تطلق من قفص مربيها .

وجلست على حافة البحيرة وخلعت حذاءها وجواربها وأدلت رجليها فى الماء ودفعتنى بشدة إلى الوراء وأخذت حذائى لتنزعه .

قلت : مهلا مهلا . وخلعت الحذاء .

وسرنا وسط البحيرة الجميلة مع أكثر مع حبيبين يتراشقان بالماء ويضحك لهما الموج وتندفع التيارات التى تسببها حركات الأرجل إلى هنا وهناك وترتطم بالحافة رعبا فتكون سورا أبيض اللون جميلا ..

وهتفت بلا وعى :

سوف تفوتنا الطيارة مرة أخرى .

قلت : هذا ما أتمناه .

لماذا ؟

لكى نعيش وقتا أطول سوية .

قالت يمكن أن نعيش سوية ونحن فى وجهتنا التى نذهب إليها هيا .. وأسرعنا ركضا إلى باب الحديقة التى كانت قريبة من محل الشركة وكانت السيارة على أهبة السفر .

ولما أقلتنا الطائرة ، أحسست بيد تفتش عن الحزام وتضعه بيدى وهى تقول :

عد إلى عالمك الواقعى واربط حزامك .

كانت السفرة ممتعة وكان حديثها يزيد المتعة لذة واللذة نشوة والنشوة حياة والحياة شبابا وأملا . أخذت تتوغل فى قلبى كالبذرة الصغيرة العامة التى تريد أن تنمو بسرعة وتغرس جذورها فى روحى وكيانى كالطفل الصغير الذى يريد أن يكبر ويتخذ كل الأساليب ليبدو رجلا أو كالفتاة المراهقة لتكون سيدة . بذرة عجيبة أحس بأوراقها تخرج من الأغصان وأحس بالأغصان تكبر فى الشجرة وأحس بالشجرة وهى تسابق الشمس والماء والهواء وتلتهم مكوناتها بشراهة ونهم ..

وأخذ صوتها يرق ونظراتها النافرة الشاردة تلين وتستكين وأخذت يدها بين يدى فاهتزت واهتز جسمى معها وكأننا نعيش فى المحيط المتجمد الشمالى .

قلت : ألم ترى رجلا من قبل ؟

قالت : ألم تر امرأة من قبل ؟

فسكتنا وضغطت الأيدى بعنف وشدة وعشنا فى عالم جميل بعيد عن الكلام والحديث . فى عالم لا نهائى لم نعرف منتهاه .. كنا نريد أن نعيش فى غير هذا العالم .. بعيدا عن الناس لارتشاف هذا الحب الجديد قطرة قطرة لأطيل سعادتى ولأسعد حياتى بها وأنتشى أطول وقت ممكن .

ونسينا العالم كله . وكنا نتمنى ألا تصل الطائرة إلى مستقرها . ألسنا فوق أعالى الأعالى كالملائكة نعيش فى دنيا أخرى ؟ ألسنا فى السماء ؟

في كولـون

هنا كولون سوف نصل إليها بعد خمس دقائق .

أرجو ربط الأحزمة والامتناع عن التدخين .

فاربد وجهى ونظرت إلى وجهها فوجدته قد استغشى بغمامة من الألم وسمعتها تتنهد وتزفر زفرة كادت تحرق الطائرة وأججت فى الحنايا أتونا ولهيبا .

قلت :

مالك يا نورية ؟

ما أسرع ما وصلنا كولون .

ثم برقت عيناها فجأة وقالت :

إلى أين تذهب .. أقصد أين ستسكن ؟

سأسكن معك هل عندك مانع ؟

ما زالت عندى أيام أخرى قبل عودتى إلى وجهتى وعندى عطلة .. ورق صوتها وعذبت نبراتها ووضعت يدها على كتفى وقالت خذنى معك يا كامل .

كان عرضا من أجمل عروض الدنيا على نفسى .

قلت : أتقرئين الأفكار ؟

أنت ضيفة عندى فى مدينة كولون .

وأنت ضيفى وأردفت بخبث جميل هل تحبنى ..

نحن نحب بعضنا بعضا . وإلا لما قرأت أفكارى وقرأت أفكارك فما الأرواح إلا أتحدت الآراء والأفكار .

قلت : أنت معى أينما أكون فقد دخلت عمارة القلب كلها .

أمرك مطاع وسوف أمتثل أمر القلب .

قالت : الرجال يأمرون فى بلدنا مثل بلدكم ونحن النسوة نطيع . وبئست المرأة التى تريد أن تكون رجلا وتضيع أنوثتها ولن تصل إلى ما تريد .

وفى مطار كولون أخذتنا السيارة إلى المدينة ثم إلى فندق برلين .. وقد خيم الليل بسكونه وهدوئه .

* * *

كان صاحبى يحدثنى ونسى نفسه وسرعان ما قام معتذرا وأخرج كأسين من ركن وملأهما وقال :

اشرب شراب أهل الجنة فى الدنيا .

قلت لا أشرب كما تعرف .

ألم تتغير بعد وتتطور أو تتحضر وتتمدن ! !

ليست الحضارة والتطور بمظاهر المدنية . إنما باللباب وأخذ ما يعود علينا بالخير لماذا نهتم بقشورها ولا نكترث بمزاياها الحضارية والثقافية .

فشأنك شأن الشرقى الذى يصل إلى لندن ويخلع ملابسه الوطنية ثم يشترى غليونا وقبعة ومظلة ويظن أن هذه هى مظاهر الحضارة .

أما الهندية فتبقى أول أيامها بملابسها الوطنية وحذائها الصينى وعندما يأتى

البرد تسارع بشراء الملابس لتجلب لجسمها الدفء وتقنع نفسها بارتداء الساري تحت هذه الملابس السميكة. فضحك بصوت داعبت البساطة الحلوة صوته وقال :

إذا كنت لا تشرب ولا تقامر ولا تعاشر لماذا تعيش فى الدنيا .. ثم التفت إلى وقال .. ولا تدخن .

قلت رويدك فأنا أعاشر وأحب العشرة وليس سواها تبعد غربتى وتملأ روحى الظمأى من هذه الوحدة فى بلاد المادية البحتة ..

ثم أضاف ما صبه فى كأس على شرابه وجلب لى كأسا نظيفة مع كأس أخرى .

وكان منصرفا كل الانصراف إلى إعداد الشراب فقد وضع فى الكأس الثانية مثل ما صب فى الأولى .. فكانت أمامى ثلاث كؤوس مترعة اثنتان بالنبيذ الأبيض وواحدة بالعصير .

قلت ألا تكفيك الكأس الواحدة حتى تملأ اثنتين مرة واحدة . هل هى متعة النظر أم المتعة المضاعفة فى الكأسين .

فنظر إلى بعتاب مرير وقال صدق الله العظيم إنك لن تستطيع معى صبرا .

قلت حمرة وآى الذكر الحكيم .

قال : يا صاحبى ،

أنا أشرب وأدخن وأقامر وأعمل ما يطيب لى أمام الناس لأنى صريح كل الصراحة ولن أكون منافقا مثل الساسة يعملون شيئا فى الظاهر ويكتمون

الحقيقة فى الباطن وهذه بليتى مع الناس أتدرى أن (جلالا) الذى عرفناه فى الجامعة يصلى ويصوم؟ لقد أصبح فى مركز مرموق فى الدولة وصار وزيرا مزمنا . كان فى عهد الملك فاروق يتقرب إلى وزير التربية ثم تزوج قريبة مسؤول له صلة بالملك ولما ذهبت الملكية وجدته مع الثائرين يتقلب . فهو مع الإخوان المسلمين مسلم ومع القوميين قومى ومع الشيوعيين تقدمى ومع الدولة الخادم المطيع .

إنه يعيش . وها هو يتجبر ويحكم ولا تقدر حتى على مواجهته . قلت :

إنسان أضاع كرامته فى سبيل منصبه وسوف يسقط وتسمع لسقوطه دويا فى نفسه .

قال مثل هؤلاء يجدون أسيادا جددا .

أتدرى أنه تخلف فى السنة الرابعة ولكنه بأسلوبه تمكن من إقناع الأساتذة ونجح .

لا تنس أنه فى قرارة نفسه يشعر بالخزى والصغار .

وما أهمية ذلك ما دام قد تمتع بكل ما تتوق إليه النفوس : المنصب الكبير والمال الوفير والسفرات الرسمية والاحترامات حين يستقبل وحين يودع والشهرة بين الساسة .

ما جئنا للبحث عن مشكلات المجتمع ففى كل مجتمع متخلف يعيش الانتهازى والبهلوان لا الذى امتلأ ثقة بعلمه ونفسه وأدبه وفضله واحترم علمه وهو مالا يريده الحاكمون فهم يكرهونه ويبعدونه وإن كانوا يرونه كبيرا ويهابونه .

وشرب كأسه الأولى ثم صاح ضاحكا :

يا نورية .

. قلت رحمك الله هيا إلى حديثك الطلى فهو نسمة المحبين بعد الهجر ورقة الرحمة على الخاطئين .

فسكت واطبق شفتيه ثم زمها وتجهم وطال سكوته حتى سئمت أن يسرح فى الخيال وكدت أثور عليه لولا أن وجدت أسارير وجهه تنفرج وبدأ يشرق ويبتسم وقال :

نزلت ونورية فى برلين أقصد فندق (برلينو) فى كولون حيث وجدت غرفتين متجاورتين وكانت سفرتى طويلة إذ خرجت فى الصباح الباكر ووصلت بعد منتصف الليل لكن إرهاق الطائرة وسأم السفرة قد ضاعا بصحبتها .

وودعتنى عند باب الغرفة بحرارة وقلت سنلتقى فى الصباح فى فناء الفندق ...

وأسرعت إلى الفراش وكأنى قطعة من حجر أتوق الثبات على الأرض .

وما احتوانى الفراش حتى رن جرس الهاتف .

وعجبت من الأمر لعل مدير الفندق يطلب شيئا وفى لحظة كان الصوت المنساب حدا فاصلا للتفكير فقد اهتزت سماعة التليفون نشوة ورقصت الأسلاك سعادة وارتاحت روحى وانتشت جوارحى .

قالت :

نسيت أن أقول لك تصبح على خير.. وأحلام سعيدة . وبعد فترة

صمت . سمعت صوتها يفيض أنوثة ويطفح بالدفء يقول :

يا حبيبى بلهجة أندلسية .

إنها أجمل لفظة سمعتها بهذا العمق والصدق والعاطفة المشوبة إنها أشهى الأنغام وأحلى الموسيقى ثم قالت :

فى أية شقة مكانى فى عمارتك ..

قلت : أنا لا أملك عمارة ولست أفكر فى يوم من الأيام أن أمتلك عمارة .

قالت : ألست مهندسا .

قلت : بلى .

قالت : ألم تقل لى أنك ملكت عمارة قلبى فأين يذهب الساكنون فى الشقق ؟

انتبهت وأخذت أداعبها وقلت .

أتدرين أن إحدى الصديقات سألتنى يوما أن أؤجر لها شقة فى قلبى فقلت لها : أنت طموح . فقالت : لماذا ؟ قلت عليك أن تستأجرى غرفة فى عمارة هذا القلب .

قالت : أعرف مقدار المعجبات بك .

فانساب صوتها وهى تقول :

أنا غنية .. لن أدع سواى يأخذ هذه العمارة إنها لى .

أرجو لك أحلاما سعيدة وحذار أن تؤجر غرفة واحدة فى أحلام الليلة .

ووضعت السماعة .. ونامت همسات الليل .. وهدأت أحاسيس الحياة . ولكننى لم أنم وحدى إنما نامت الفرحة والسرور والغبطة معى وما أجمل ليل

الفرح وشعور الروح باللذة الغامرة . إنها أجمل الليالى وأحلاها إنها العمر كله بل أجمل من العمر كله .

رن جرس التليفون فى الصباح فأفزعنى وبدون وعى وضعت السماعة على أذنى .

صباح الخير .. فلم أجب .
صباح الخير .. يا كامل .

صباح الفل والزهر والياسمين وأزهار الرياض فى الدنيا كلها .

هل سكت لتجمع الرياض وتقدمها لى ؟
إنها خجلى منك لأنها جزء من جمالك وتعيش على شذاك
هل رأيت أحلاما سعيدة ؟
كلها سعادة .

أردت أن أوقظك عند منتصف الليل فقد استيقظت ووجدت نفسى قد أخذت قسطا كافيا من النوم ولكننى عدلت لأنى أعرف أنك آت من بعيد وقد أرهقتك السفرة .

بالفعل . ولولاك لكانت مرهقة . وأحمد الصدف أن تأخرت . ولعل الله أراد أن يجزينى خيرا لأنى خدمت إنسانا دون أن أعرفه فى المطار وكان تائها .

ألم يكن عربيا ؟
بلى .

كيف لا تعرفه إذن ؟

وحرت فى الجواب وقد غمرتنى بالذكاء اللماح ثم استدركت لوكان هذا أسبانيا أو إنكليزيا أو تركيا لما ترددت فى مساعدته .

قالت : ربما جوزيت على عمل قمت به دون أن يلمس عواطفك هل أنت جاهز للإفطار ؟

- فى دقائق

وضعت السماعة ودخلت الحمام وما خرجت منه إلا وجدتها قد نامت فى فراشى وغطت نفسها وقالت أريد أن أحس بوجودك أريد أن أحس بكل كيانك أريد أن أحلم الأحلام التى رأيتها البارحة أريد أن أضع خدى على وسادتك .

وأخذت تختار لى ما ينبغى أن أرتدى من ملابسى وربطت لى رباطى ونظرت إلى من أعلى إلى أسفل وتلفتت حولى يمنة ويسرة ثم قالت :

هيا إلى الخارج الآن ووضعت يدها تحت إبطى وأخذت مفتاح الغرفة وأغلقتها ثم ضحكت قائلة :

تفضل يا سيدى أمتك يا هارون الرشيد أو يا شيخ العرب أيهما تحب ؟

لا أعرف كيف تناولت الإفطار وما أحسست إلا بأنى آكل وأشرب أما لون الطعام ومذاقه وشكله فما رأيته . كنت أنظرإليها وهى تأكل وأمتع نفسى وهى ترشف الشاى . وكان الشاى والطعام والمائدة وكل ما حولها سعيدا بها مفتونا حتى الندل طفق يطيل النظر إليها وكاد أن يقع منه حمله . وعمال

الفندق كانوا يرحبون بها ويحبونها فاغتبطت بكل هذا وقالت :

هل تعودت النزول فى هذا الفندق ؟

قلت هذه هى المرة الثانية

قالت : يعرفك الخدم ويقدرون زيارتك وأنا أحس ذلك من هذه العناية الكبيرة بى .

قلت :

سيدتى إنما زاد التقدير حين جئت معى . فلقد سحرت الجو كله .

قالت عدنا للمجاملات والكلام الجميل ثم انتشت برقة ولطف وقالت :

كامل . لماذا لا تكون شاعرا ، إنك فى بلاد الشعر ولقد قرأت ألف ليلة وليلة وأخذتنى لياليها وحسانها وما فيها من دقة الوصف والشاعرية .

قلت : هذا كل ما تعرفين عن الشرق ؟

لماذا قلت لى هارون الرشيد وشيخ العرب

لماذا لم تقولى لى فاروق أو ...

قالت لا أعرف عن العرب إلا ألف ليلة وليلة .

أما مصر فأعرفها إنها بلد الفراعنة وأخشى أن أسميك باسم فرعون مثل رمسيس أو تحوتمس .

قلت : أحسنت وأحسنت .

وتركنا المطعم ولم تكن لنا وجهة مقصودة فالدنيا كلها ملكنا وسرنا حتى وصلنا نهر الراين . قالت أهذا هو الدانوب ؟ قلت بل هو الراين .

وعلى مياه الدانوب نظم شتراوس اللحن المشهور الدانوب الأزرق وليته يعود للحياة إذن لغير الأسم وسماه الدانوب القذر الأسود فقد عاثت المدنية والحضارة فيه وأخذت ترمى نفايات المصانع حتى استحال الماء أسود اللون ودفنت الأسماك فيه .

هل لك فى سفرة على نهر الراين ؟

قالت : كل شيء معك حلو جميل .

أجبتها : عدنا شاعرين خياليين .

قالت : خير الناس الشعراء فهم أصدق إحساسا وأعمق عاطفة من البشر أجمعين . قلت : تريدين كل فنان .

قالت : هى صفة الفنان ولكن الشاعر أبرز فى العاطفة وأصدق من غيره تعبيرا .

قلت : لكن الشعراء فى بلدى اتخذوا من الشعر وسيلة للكذب على الجماهير فمدحوا الملوك والسلاطين والسلطة واتخذوا الشعر وسيلة لأغراضهم الخاصة . قالت : ليسوا إذن من أرباب الفن إنهم صناع ، وشتان بين الفنان والصانع .

وجلسنا ننتظر السفينة التى تقلنا من كولون إلى (كوبلنز) ثم التفتت إلى وقالت :

حتى هذه اللحظة لم تعرف من أنا .

ولم أعرف من أنت ؟

قلت : هل هناك أعمق من هذه المعرفة هبينى إنسانا لا ماضى له خرج

من البحر وتحدث إليك ألم تشعرى بالسعادة معى ؟

فقالت : بلى كل السعادة .

وأنا أشد ما أكون سعادة بك معى .

قالت : لا أريد أن أكون مثلكم أيها العرب تسأل عن الأحباب والأنساب والأمهات والآباء وإذا أخطأ إنسان فى القبيلة وبخاصة المرأة أصاب العار كل الأسرة أو القبيلة إنما أردت أن تحدثنى عن نفسك ففى الحديث راحة لنا .

قلت : يا سيدتى .

أنا خريج كلية الهندسة فى الإسكندرية وقد عملت خارج الدولة فى الهندسة المعمارية ثم أتيحت لى الدراسة فى لندن ، حيث أكملت الدراسة العليا فيها ..

هل تجد لذة فى الهندسة والعمل ؟

ألا تحس بالارهاق حين ترسم خارطة بيت أو مؤسسة ؟

لست صانعا إنما اتخذت الهندسة هواية لى ، ولهذا فأنا أعشق عملى ولا أحس بالحياة بغير العمل ولذتى فى هوايتى التى هى الآن حرفتى .. ويبدو لى أن المختصين يضعوننى فى مقدمة المهندسين فى بلادى فقد أعجب الكثيرون بما أنشأت ونلت تقدير المهندسين فى العالم بل الحق أقول أن المختصين من خارج العرب هم أكثر صلة بأعمالى .

كم عمارة أو مؤسسة أنجزت فى حياتك ؟

قلت أعمالى كثيرة ولا يمكن حصرها . كان رائدى الأول أن أجىء بشىء جديد ، وقد وفقت إلى الجديد فكل بناء كبير له أسلوب خاص وهندسة

متميزة وتخطيط يختلف عن غيره من الأعمال ، ويسعدنى أن أصبحت لى مدرسة يقتدى بها المهندسون الجدد ويسيرون فى هدى أعمالى بل يسرقون منها ويعيشون على هذه السرقة .

أيسرقون منك ؟ ولماذا لا تقاضيهم ؟

المهندسون يعرفون أننى أول من أسس هذا النوع من العمارات وأنا أول من فتح هذه الطرق ولا تخفى خافية على الدارس الباحث فى أصول الفن المعمارى ، كما أنى أجد لذة فى أن اسرق ، فمعنى ذلك أن لى شيئا كبيرا يستحق أن يسرقه المهندس الجديد ..

ـ أما أنت يا فاتنتى

ـ أنا باختصار طبيبة تخرجت فى مدريد وأكملت دراستى فى أمريكا واختصاصى الأمراض العصبية والنفسية .

قلت : أحمد الله فقد أمنا المرض فبالله عليك ألا تعالجين مجنونا فى هواك .

قالت : هذا جنون أرجو أن أصاب به إنه شىء لذيذ ولن أشفيك ـ وسوف أزيدك هوسا وجنونا .

وما أن رست السفينة حتى صعدنا إليها .

* * *

إلى كوبلنز

كانت الباخرة من بواخر السياحة الصيفية التى يجتمع فيها الركاب وقد غطيت بغطاء زجاجى يشف عما وراءه . جلس السياح فى صمت حيث كان قائد الرحلة أو المذيع يتحدث عن نهر الراين وما على ضفافه من قصور وقلاع . كانت يوما مساكن نبلاء الإقطاع وقادته . وكانت المناظر حلوة جميلة ، وكنا ننظر إلى شريط سينمائى حيث الجبال الشاهقة والبنايات الجميلة والمروج الخضر التى كست الروابى والبطاح فلا نرى غير خطوط المواصلات السوداء تنساب بينها .

وجاء النذل وبدأ شراب الراين يعمل عمله فى الراكبين وعلا الضجيج والحديث وسرعان ما التأم الركب المبعثر فى أغانى ألمانية عذبة حلوة ولما ساهم الجميع فى الإنشاد وكانت قد انسابت الخمرة فى الرءوس ودبت الجسوم وأصبح الجالسون مجتمعا جديدا كله صداقة وود أحسست بيد بضة رقيقة تمسكنى وتضع يدها تحت إبطى . ووجدت الجالسين يهتزون يمنة ويسرة على أصوات الموسيقى فأخذت يد نورية تحت إبطى وأخذنا نهتز معهم ونضحك معهم ونسينا كل شىء .

وأعلن وقت الاستراحة وتقديم بعض الطعام الخفيف فالتفت إلى الألمانى الذى يجلس إلى جانب هذه السيدة الألمانية الجميلة وقال أنا الهر بيدرمان .

قلت: الاسم معروف فقد ورد فى رواية للكاتب السويسرى ماكس فريش.

وألقيت نظرة سريعة على وجهه فألفيت مظاهر الطيبة واللطف وسرعة الود الذى حبانا به قال:

أتعرف ما معنى اسمى فى اللغة الألمانية؟

إنه الرجل النبيل الشريف.

قلت: له يظهر الاسم على محياك.

قالت: شكرا.

قلت: أنا مهندس لكننى أحب الأدب وأتتبع كتبه وأستفيد منه كثيرا.

ثم التفت إلى زوجه وقال: والتى بجانبك زوجتى.

قلت: اسمى كامل.

وهذه الدكتورة نورية من أسبانيا ونحن أصدقاء.

قالت السيدة الألمانية:

كأنكما زوجان يصلح أحدكما للآخر..

قالت: أرجو أن يكون ذلك.

ورفعت يدى إلى السماء وقلت:

آمين.

وسرعان ما رفعت هى وزوجها الأيدى بكل إخلاص وصدق وقالا بصوت عميق.. آمين.

واستأنف الألمانى القول: أنا لست أديبا ولكننى مهندس سيارات وأحب

التاريخ وأتتبعه وعندى مكتبة فى التاريخ المعاصر. وأحاول أن أتعرف على العالم بعد أن أصبح الكون صغيرا .

وعندما كان الحديث يدور بينى وبين بيدرمان قلت للزوجة هل تريدين أن تتحدثى مع الدكتورة ونحن نتحدث فى السياسة والفكر فضحكت وقالت :

أتعتقد أن الرجال هم وحدهم يتحدثون فى الأمور العامة والسياسة ونحن نتحدث فى الأزياء والطعام ؟

فشعرت بأننى غلطت وأنا فى أوربا .

ثم استدركت وقالت :

إن السياسة قاتلة وهى التى جنت علينا وأصبح الوطن الألمانى محتلا ومجزءا .. وقد انتصر علينا اليهود ، وأحسست بالكلمة تتقطع بين شفتيها .

ولما شعرت بالارتياح الذى بدا على وجهى قالت هل تحب اليهود ؟

قلت : لا أكره شعبا من شعوب العالم .

ولكنى أكره الأعمال التى تقوم بها جماعة من اليهود وأكره الصهيونية لأنها اعتدائية .

قالت : لا أظن فى الدنيا يهوديا ليس صهيونيا .

قلت لها : لا أوافقك على هذا الظن .. ففى العالم وفى أمريكا التى تحتل بلادكم خاصة جماعات كثيرة تقف ضد الصهيونية .

قالت : هؤلاء يخافون على اليهود لأن النهاية حتمية فالاعتداءات المتكررة على الألمان خير دليل على أن الشعب الألمانى سوف يقضى على اليهود .

تصور أننا لا نقدر أن نتحدث بشيء ضد أى يهودى .

قلت: أعرف .

كنت قبل يومين فى بون ورأيت يهوديا يعتدى على ألمانى ولكنه لم يرد عليه الاعتداء .

قالت : لو رد لأُتهم بالعداء للسامية وأخذ إلى المحاكم وكانت النتيجة السجن .

قلت : أن اليهود هم الذين يحكمون ألمانيا .

قالت: ذلكم هو الصواب ولكن العرب لايريدون أن يعرفوا هذه الحقيقة فهل يحكم الشعب الألمانى نفسه وهذه جيوش الحلفاء تحتل أراضينا وتقسم الوطن الألمانى إلى عدة دول . والتفت زوجها وقال بصوت منخفض :

الزا خفضى من صوتك وابتعدى عن السياسة واليهود . فربما كان هنا من يسمع وتكون مشكلة . ثم نادى بأعلى صوته على الحسناء التى تسقى ركاب الباخرة وسألنا إن كنا نقبل دعوته للشراب فوافقنا مسرورين .

قال : ما تشرب .

قلت : (موسل) .

قال : وأنا موسل .

فردت نورية : موسل .

ونظرت الزا إلينا وقالت بعجلة وابتهاج : موسل .

ثم نظر إلى وقال :

هل تحب الشراب ؟

قلت : الحياة شراب ونساء وجمال الطبيعة .

فقام ضاحكا ورفع كأسه وقال :

بصحة المصرى وليدم قوله .

الشراب والنساء والطبيعة الجميلة .

فلكزته الزا وقالت :

النساء ! !

فنظر إلى ضاحكا وقال المرأة الواحدة !

وكان السكر قد أخذ منه مأخذا وانطلق بكل حريته وقال : هر كامل .

قلت : نعم .

قال : تحية للنبى محمد .

قلت : هل عمل لك عملا .

قال : فهم الحياة بفهم الرجل وفهم المرأة وفهم المجتمع الإنسانى ولذلك فإن دين محمد خير الأديان .

قلت : أترى أنه دين البساطة والمجتمع والحياة ؟

قال : لا .

قلت : إذن ما أهم ما لفت نظرك فى دين محمد ؟

قال : دعنا من القضايا الاقتصادية والدينية إنما أريد أن أحدثك عن المجتمع .

قلت : عن أى شيء .

قال : عندما أباح لكم الزواج بأكثر من واحدة .

فإذا بالزا تصرح : إنه ظلم . لماذا أباح للرجل أن يتزوج أربع زوجات ولم يسامح المرأة فى زوجين .

أصبحت القضية مشكلة فكرية يهاجم منها أعداء العرب والإسلام الرسول من هذا الباب فعلى أن أحترس فى القول وأوضح لهم الأمر.

فانفلتت الدكتورة نورية قائلة :

- أنا لا أمانع أن يتزوجنى كامل وإن كانت له أعداد من الحريم . ثم التفتت الزا إلى زوجها وقالت : وقد لعب النبيذ فى رأسها هل تأخذنى يا هر كامل زوجة أخرى وأرتاح من عناء العمل ليل نهار وأكون فى بيتى .

هل تعطينى بيتا أو غرفة أو قصرا .

قلت : الافتراض بعيد عن الواقع ومع اعجابى بذوق زوجك وحسن اختياره ..

فرد زوجها وقد أخذت الخمرة مأخذها :

أنا متنازل عنها أرسل لى جارية من جواريك بدلا عنها .

قالت : إنى أوافق لأنى أريد أن أذهب إلى الشرق . قلت : إذن فلم يعجبك شكلى إنما رغبتك فى الشرق هى التى دعتك إلى مجاملتى . قالت بصوت هادئ وهى تهمس :

لابد من مجاملة عواطف زوجى .

ولما شعرت نورية أن الزا تقربت إلى وهى تهمس فى أذنى قرصتنى فى

فخذى قرصة كادت أن تدمينى دون شك لأنى أحسست لذعة النار رغم الشراب الذى شربناه طوال السفرة .

وسرعان ما أعلن المذيع عن وصلة جديدة للغناء والموسيقى واتحد الجميع فى غنائهم وأخذوا يتمايلون وأحسست بأن الزا صارت أكثر قربا إلى جسمى من ذى قبل ولصقت كل جسمها بى وبالحرارة تسرى فيها وفى الجانب الثانى كانت نورية أشد حنينا وشوقا والتصاقا وقد أخذت الخمرة تعبث بنا ولا ندرى كيف وصلنا فقد سمعنا المذيع يرجو الراكبين النزول إلى الساحل فأمسكت بى الزا وقالت : إلى أين أنت ذاهب . قلت : سأعود إلى كولون هذا اليوم .

قالت : ونحن سنعود معكم فلا تهرب منى .

ثم انفلتت هى وزوجها وضاعت مع النازلين على أرض كوبلنز .

ونظرت إلى نورية وقالت بتنهد : أحمد الله .

وقالت : كأنك أحببتها .

قلت : معاذ الله .

قالت : كانت تنظر إليك بعشق وهيام .

قلت : تريد التغيير .

قالت : وزوجها كان يتمنى ذلك .

قلت : مغفل .

قالت : لأنه كان يريد أن أذهب معه .

قلت : لن يكون .

قالت : أفهمت .

قلت : بدون غيرة .

وأخذتنى بكل حنان وحب وطبعت على خدى قبلة حارة وقالت هيا نخرج فلم يبق إلا عدد ضئيل على ظهر الباخرة من الركاب .

ونزلنا على اليابسة .

وكانت نورية تملأ الدنيا وكأننى أريد أن أقول أيها الإخوان تعالوا إلى كوبلنز لتروا هذه السعادة . ألا يوجد مصرى واحد يرى أنى أمشى مع نورية سيكون شاهدا عندى للأصحاب ليصف هذا الجمال الأخاذ فى القاهرة . ثم أسترجع وأقول الحمد لله لعدم وجود مثل هؤلاء وإلا كان أول عمل يعمله أن يغازلها ويتحدث عنى ويختلق الأباطيل يريدها لنفسه وكأن ألمانيا خلت من النساء إلا هذه الفتاة ..

قالت : ياكامل .

قلت : نعم يا سيدة كامل .

هل يمكن أن نعيش متشردين فى هذه البلدة

قلت : ألسنا متشردين الآن . قالت :

اترك الرباط اترك الأناقة دعك من كل شىء ثم أخذت الرباط والسترة وتركتنى فى القميص والسراويل ووضعت الجميع فى حقيبة اليد والتصقت بى وكأنها تريد أن تدخل جميعها فى جسمى ، ثم مررنا على بائع (الهمبرجر) قالت : اثنين .

وأخذت قرصا وأخذت الثانى .

جلست على الأرض وأخذت تحتسى الشاى ثم تمددت على الحشائش فى

الحديقة بجانبى ورفعت رأسها ونظرت فى وجهى بعد أن انبطحت على الأرض
قالت : هل أنت جائع ؟ قلت : قليلا .

قالت : حسنا يا شيخى وأميرى لا تتحرك سوف أغذيك حالا فذهبت إلى بائع (الهوت دوج) وجاءتنى باثنتين وجاءت بواحدة لها .

قلت : هل تكفيك واحدة .

ضحكت وقالت : ألم تقل للذكر مثل حظ الأنثيين .

قلت : نفعك الدرس ونسيته .. ولكنه ليس دائما .

ثم جلسنا آخر المطاف تحت أقدام نصب كبير مطل على الراين لعله وضع تذكارا للسلام ونهاية الحرب العظمى الثانية ، وكان التعب قد أخذ منا كل مذهب فأحسست وأنا مغمض العين بوخزة فى جنبى قلت دعينى أسترح يا نورية فأنا متعب .

ثم عاودنى الوخز ففتحت عينى فوجدت أمامى الزا وزوجها وهما يضحكان .

وبلا شعور قلت بلهفة : هلو ..

ففتحت نورية عينها ولكنها تمالكت نفسها ووقفت لتصافح الزا وزوجها .

وسرنا على ضفاف الراين ثم جلسنا على مصطبة نسرح النظر فى المياه السوداء والسفن الجميلة التى تسحب وراءها قطارات من الحمولة المتنوعة ولاحظت بيدرمان يحدق فى نورية فقد لفت نظره جمالها وفتنتها .

قلت : يا بيدرمان سألتنى عن محمد وأنه أباح الزواج بأربع .

قال : نعم نعم ولهذا أحب محمدا .

قلت : أولا إن محمدا لم يبح هو الزواج أو يحرمه .

قال : إذن من .

قلت : الشريعة الإسلامية. ثم إن هناك شروطا صعبة للزواج بأكثر من واحدة وقد حبذ الإسلام الواحدة هذا من خلال تعاليم الدين التى تكاد تمنع الزواج باثنتين .

ألا تعلم أن الزواج بأكثر من امرأة بعد الحروب خير من بقاء عدد كبير من النساء بلا رجال .

فانبرت الزا وقالت :

طبعا طبعا نصف رجل أو ربع رجل خير من لا رجل فقد كان الجنود الأمريكان يصادقون كل يوم ألمانية ومع ذلك لم تحصل بعض الألمانيات على الرجل لكثرتهن فالأحسن من الناحية الإنسانية الدين الإسلامى . ونحن نعرف رجالا عندهم أكثر من (دزينة) من النساء صديقات .

ضحك بيدرمان وقال : إذن خذا الزا معك فهى تحبك وقد أتعبتنى بالحديث عنك فاضطررت أن أعود إليك .

وإذا أردت أن تستغنى عن الدكتورة فاتركها لى .

قلت : أنا لا أترك نورية ولو تركت حياتى ولكن لا يهمنى لو تركت لى الزا وآخذها معى .

قالت نورية :

ولكنى لا أوافق

فقالت الزا :

لماذا تكونين أنانية سنعيش معاً مادام بيدرمان لا يريدنى وأن هركامل أوفى من زوجى .

ضحكنا وكانت جلسة لطيفة شعرت نورية بما فى نفسى لها والتصقت بى واحتضنتنى وقالت : الزا اذهبى إلى زوجك وأتركى لى حبيبى .

قلت : إنها تضحك وتسخر منك وما ترغب فى الشعر الذى بدأ الشيب يغزوه وانحسر سواده خائفا فانكفأت على شعرى تقبله وتصيح بصوت عال .. وهى تردد :

ذئب أيها الذئب تريد أن تخدعنى أنا لا أعرف من أنت ؟ !
يا ذئبى الغالى
معك فى الصحراء
ومعك على الرمال
ومعك فى الخيمات

وعلا الضحك بين الجماعة وكنا نسير على نهر الراين مع جماعات كثيرة تفد إلى هذه البقعة الجميلة .

ثم قال بيدرمان : هيا نصعد إلى ذروة عالية فى الجبل فى المصعد لنتمتع بمناظر الطبيعة وجمال النهر والسهل والقلاع ومرور البواخر .

قلت جمعت الوصف فى سطرين هيا .

وهناك فى مقهى جميل أتخذنا مجلسا منفردا فقد أصبحت الألفة كبيرة بيننا الأربعة وكأننا أصدقاء من سنين طويلة وزالت الكلفة وأحبت نورية الزا وأحبت زوجها وكانت صداقة تنبع من صميم القلب .

قال : هركامل

أتدرى لماذا جئت بك إلى هنا ؟

قلت : ألم تقل للتمتع بمناظر الطبيعة

قال : هذا سبب إلى حديث طويل

قلت : أنا رهن إشارتك .

قال : أنا إنسان قرأت التاريخ المعاصر كما قلت لك وأنا أحب العرب وأحنو عليهم ولهذا أردت أن أفهم منك أمورا كثيرة وأريد أن تسمع منى ما أقول دون أن تغضب فإنى أريد الخير لكم ولكنكم لا تريدون الخير لأنفسكم .

قلت : يا صديقى هل هناك من لا يريد الخير لنفسه .

قال : نعم .. وأنتم العرب أولا فى اختلاف واضح . قلت :

نعم . فأردف :

فى بون سفارات عربية كثيرة وسفارة يهودية واحدة فما مقدار أصدقاء العرب وما أثر هذه السفارات على الألمان .

أنا أقدر أن فى كل سفارة ما لا يقل عن عشرة من الموظفين ومعنى هذا ما لا يقل عن مائة عربى فى بون نفسها .

فلو تعرف كلّ موظف من هؤلاء على أسرة واحدة لكان لديكم الآن مائة أسرة أو أكثر . وفى خلال فترة قصيرة يزداد عدد الأصدقاء وبخاصة أن الألمان يحبون العرب ويكرهون اليهود تاريخيا .

لكنكم ترسلون إلى ألمانيا فى السفارات من لا يجيد غير اللغة العربية . لأنكم لا تختارون للوظائف الأكفاء إنما تختارون الموظفين للأعمال فالموظف الناقص الثقافة واللغة يشعر بالخوف والرهبة ويبحث عن العرب ويتصل بهم ليتحدث معهم بلغته !

قلت : مشكلة مستعصية فكل حكومة تأتى بمن تثق فيهم وتعتمد عليهم دون أن تنظر لصالح الوطن ودون أن تنظر إلى الكفاءة والتقدير العلمى والفكرى قال : هذه واحدة .

الثانية انتم تفكرون تفكيرا عاطفيا ونحن نفكر تفكيرا عقليا وهنا تظهر الهوة بين العقل والعاطفة كل حديثكم حماسة وتريدون أن يؤمن الناس بكم دون أن تقنعوا عقولهم .

أنتم تهاجمون وتسبون وتسخطون وتكررون عبارات واحدة وألفاظا بعينها لكل الشعوب وبكل الظروف دون أن تفهموا أن للشعوب مثلهم وأخلاقهم واختلاف مشاربهم وبيئاتهم . ألا ترى أصحاب البيرة كيف يعلنون فالإعلان فى (هامبورج) يختلف عن الإعلان فى الجنوب . بل إن الإعلانات فى برلين تختلف باختلاف المواسم فليكن الإعلان العربى والإعلام باختلاف الشعوب .

اليهود سماسرة وتجار ويعرفون ما يرضى رغبات البشر ويقدمون لهم كل

ما يريدون حتى يفوزوا بأموالهم والتاجر يكون جبانا خائفا على ماله ولكنه يكون خبيثا وأنتم فرسان وأبطال ولكن البطولة وحدها لا تكفى لأن إسرائيل سوق تجارى ليس لهم فيها شىء،كل شىء مجلوب من العالم وأنتم فى أرضكم وأموالكم ولكنكم تتقاتلون وهم يتحدون ضدكم .

هم اتحدوا باسم الدين اليهودى .

وأنتم تقاتلون باسم المبادئ والمثل الغربية والشرقية والعدو على أبوابكم .

كان الرجل صادقا مخلصا وأردت أن أغير الحديث فقلت :

أنتم قتلتم اليهود وحرقتموهم ونحن نالنا الجزاء .

قال : هذه أسطورة روجها اليهود وإذا كان هناك من سجن وعذب فقد تعذبت جميع الشعوب وقد كان اليهود أنفسهم يعذبون جماعتهم لكى يفروا ولينشئوا الوطن القومى بعد أن وجدوا أن اليهود فى ألمانيا لا يريدون ترك ألمانيا وقد كان فى الشرطة السرية من اليهود عدد كبير يثيرون الدولة على اليهود .

استفادوا فى الحالين أخرجوا اليهود من ألمانيا بعد أن عذبوهم ثم أخذوا يطالبون بالتعويضات . فهم هجروا اليهود وأخذوا التعويضات لبناء إسرائيل .

ثم قال بصوت هامس :

رحم الله هتلر لم يخلق الله غيره فلم يكن معتديا . فإذا كان اليهود نالوا من أذاه فما سلم الألمان منه . نحن الآن مستعمرون من اليهود باسم أمريكا . .

وثق أن هتلر له أنصاره بعد أن شوه اليهود تاريخه وأرادوا إهانته . ألم يهاجموا نابليون وما زالوا فى استمرار على الهجوم .

لم يعجبنى الحديث وأنا أعرف أن هتلر قد ساق العالم إلى الدمار ومات فى الحروب الملايين ولكن استمعت إليه لأستفيد منه ولأعلم تيارات الفكر المعاصرة فى ألمانيا .

* * *



العودة إلى كولون

تشعب الحديث وطال . ووجدت الرجل الألمانى ملما بأمور العرب وكانت الزا أشد انتصارا لهم ولما أردت أن أسلم عليهما لأودعهما قلت :

أشكرك يا الزا على عواطفك الكريمة تجاه شعبى المظلوم الذى ظلمه الغرب وأرجو أن نكون معا دائما .

فضحكت ثم نظرت إلى وجه نورية وقالت :

ما دمت قد تعرفت عليك فسيكون حبهم راسخا فى قلبى ووضعت يدها على صدرى قرب القلب .

وقالت لها نورية : كل العرب ..

ونظرت إلى بيدرمان وقالت :

ولكن كامل ـ عفوا لكامل مكان خاص ـ هل تغارين عليه .

قالت نورية :

إنه حبى وقلبى وروحى ولا أريد أن تطلع روحى .

ضحكنا وجاءا معنا حتى محطة القطار يودعان .

وما أن خلت لنا المقصورة حتى قالت نورية :

ما كنت أدرى بأنك متحمس لأمتك فأنت هادئ الطبع معى . قلت :

جمال الرياض وعطر الأزهار والأنسام العذبة تهدئ الأعصاب فكيف إذا كانت نورية بجنبي ؟

ضحكت ولم تتوقع هذا القول .

قالت : أعجبنى موقفك ونحن فى أسبانيا أشد كراهية لليهود منكم .

قلت : نحن ماكرهنا اليهود وقد كان منهم وزراء واعتمدنا عليهم ومنحناهم الحرية الكاملة فى العبادة لأن الإسلام اعتبرهم أهل ذمة وعلينا حمايتهم والعناية بهم وتسامحنا معهم خلاف الأمم الأخرى فقد اضطهدوا من الفرس والرومان وسباهم أهل بابل .

قالت : أهل بابل أجدادك .

ضحكت وقلت : أحسنت أنت تعرفين التاريخ لكن نسيت تاريخ العرب فى بلادك .

قالت : كيف ؟

قلت : أتعرفين أن عبد الرحمن عين صموئيل بن النفرانى (ابن نجريله) وكان حاخاما يهوديا ورئيس وزراء فى قرطبة .

قالت : إنه لأمر غريب كيف حدث هذا ؟ قلت : والأكثر أنه سمح له أن يناقش ابن حزم أحد علماء الأندلس عن صحة الإسلام .

قال : أمر أغرب .

إنه غريب جدا أن يعامل اليهود العرب بوحشية وبطش بينما العرب عاملوهم بالتسامح .

فالرومان منعوهم من إقامة شعائرهم وكانوا يذبحون كل حاخام لليهود ولو اختاروه سرا . حتى حررهم العرب حين فتح العرب القدس أيام عمر بن الخطاب وطردوا الرومان منها ثم عين لليهود كبيرا لهم حاخاما حيث كانوا يتمتعون بحرية كبيرة . فلما أن بدأتم فى اضطهادهم فى بلدكم فر موسى بن ميمون حيث عينه الملك العادل أيوب رئيسا للأطباء أى سلمه أرواح المسلمين وحياتهم .

لم يقنع نورية هذا القول ونظرت إلى بعين الشك والريبة . وقالت :

أنا أحتقر اليهود . إنهم شعب حقير وإنهم قتلة لأنهم قتلوا المسيح .

قلت : هذا هو الصواب

وسكت

وكان القطار يهدر فى سيره . وسرعان ما وصلنا المحطة وأخذت نورية من يدها فضغطت على كفى وفجأة وقفت .

فوقفت وقلت : ماذا ! !

قالت : إلى أين ؟

قلت : إلى الفندق

قالت : أنا جوعانة

قلت : وأنا كذلك

قالت : وأنا عطشانة .

قلت : وأنا أشد عطشا

قالت : هذا مكاننا المفضل دعنا نجلس

كنت أحس أن فى نفسها شيئا .

ولما جاء النذل

أسرعت وقالت :

هات اثنين موسل

قلت : ما تأكلين ؟

قالت : أروى عطشى وأفكر بعمق حتى لا أضيع فكر وشربت كأس النبيذ كرة واحدة وكان النذل واقفا .

قلت له : زجاجة كاملة من فضلك .

ضحكت وقالت : سبقنى إلى ما أريد هل تقرأ الأفكار !

ضحكت وقلت : أريد أن ترتوى من كل شيء .

قالت : لا أريد أن أرتوى إلا منك

قلت : لما جئت متأخرة

قالت : بالعكس جئت فى الموعد المحدد

إنها قسمة ولن أفرط فى لحظة واحدة معك .

وبعد أن شربنا وتعشينا .

قالت: أريد أن أمشى معك أريد أن أتيه معك أريد أن تأخذنى حيثما تريد . دعنا نمشى فى الشوارع ونتيه فى الأزقة والدروب . وسرنا وسرنا دون أن نعرف أين تذهب خطانا حتى بعدنا عن زحام الناس . وجلسنا على الأرض عند النهر الجميل . وجذبتنى إليها وجلست معها وقالت :

حبيبى .. أريد أن أعاتبك

تعاتبيني هيا دون تردد
قالت : لماذا لا تتحدث معى عن العرب ؟
قلت : هل تريدين الحديث ...
تاريخ العرب فى بلادك
قالت : أنسيت أننى عربية وأنك أخبرتنى ذلك .
هل أنا غريبة قل لى كل شىء عنهم حدثنى ياكامل :
اعتذرت وقلت هذا شعور طافح أعتز به .

قالت : أنا أعتز به أتعرف أنني وجدت نفسى . وجدت إحساسى لأننى أخذت أحس بأن لى أصلا وأن أصلى هو العرب بناة الحضارة والعلم والفن . آه لو أن العرب أفهموا كل أسبانى أصله لأصبح الأسبان كلهم معكم حيث لا تغنى آثارهم وحدها .

قلت : هم معنا دائما .
قالت : لا أعنى سياسيا إنما فى قلوبهم وإحساسهم .
قالت : هذا واجبك منذ اليوم
قالت : وحدى سأعمل المعجزات

كان الدرب الذى مشيناه بعيدا عن الفندق ولم أكن قادرا على السير قلت :

إلى تاكسى أيتها الظبية الفتية .

قالت : هذا أملى وخشيت منك أن تضحك على يا ذئبى الغالى.أما ترى الشاة قد تعبت .

وفى التاكسى مددت رجلى فما وجدت غير رجليها تسبقان رجلى .

ونزلنا إلى الفندق وذهبت إلى غرفتى وخلعت ملابسى ولبست ملابس النوم وإذا بالباب يفتح بهدوء وسكون وتدخل نورية وقد غيرت ملابسها بملابس جديدة .

قلت : إلى أين ؟

قالت : أتنام ! !

وكأن عطرها الفواح أيقظ الحجرة وأثاثها وسحبت الغطاء فلففت نفسى بالبطانية وتدثرت بها ولكنها سحبت الفراش من تحتى وهى تصرخ قم .. العمر قصير ومعك أقصر .

الحياة حلوة . دعنى أتمتع معك دعنى أرى حلاوة الحياة أريد أن نخرج ثانية أريد أن تحدثنى أريد أن أسهر معك حتى الصباح أريد أن ارى الشمس تطلع ونحن ساهران .

وأخذت تنزع ملابس النوم عنى وتلبسنى ملابسى وكأنى طفل صغير تُدَلّله وتناغيه فأحسست بأن قواى قد عادت ونسيت كل التعب الذى قاسيته طوال النهار ودخلنا إلى مرقص ليلى جميل فى زقاق من أزقة كولون .

وأخذت ترقص وتشرب وتشرب حتى أغلق النادى أبوابه ولما دخلنا الفندق كان الخدم يعدون الإفطار .

فأفطرنا ثم نمنا .

ولم أشعر إلا فى الساعة الثانية عشرة وبنسمة شذية تداعب شعرى .

ففتحت عيني على نورية تحمل كوبا من الشاى وقالت : أتريد أن تتغدى أم تنام حتى العشاء .

وجدت نفسى قد أخذت قسطا من الراحة وذهبنا إلى مقهى صغير فى (الحلقة) وشربنا القهوة قالت وأنا أهم برفع فنجان القهوة : هل لى أن أتعلم من أستاذى شيئا من العلم ؟

قلت : تفضلى يا تلميذتى الغالية .

قالت :

عندما كنا فى كوبلنز وجدتك تهرب كلما وصلت إلى حرب يونيو ووجدتك لا تتحدث عنها فهل هو نتيجة الحرب . وخسارتكم فيها .

قلت : يا سيدتى نحن لم نخسر الحرب

ولكنا خسرنا معركة واحدة .. وفى تاريخ الأمم كثير من المعارك التى تخسرها وإنما الأعمال بالخواتيم ومازلنا فى أول الصراع .

قالت : إنك متفائل

هى الحقيقة يا نورية إذا لم تكن فى القريب ففى التاريخ البعيد .

فالأسبان وقفوا لنا بالمرصاد ثمانية قرون ثم طردونا من دياركم مع أننا لم نحمل لهم إلا الخير وجعلناهم أخوة لنا وساويناهم بأنفسنا ولم نفرق بين عربى وأسبانى فكيف تريدين أن أتشاءم واليهود فى غير بلادهم وقد خلقت إسرائيل لأغراض سياسية بحتة ولابد لها أن تزول بزوالها .

ولماذا تذهبين بعيدا والحروب الصليبية حكمت المشرق وأنشأت فيه

حكومات تسعين سنة ثم أخرج الصليبيون . إن الجسم الغريب لا يقبله جسم الإنسان . فنى إسرائيل أمم مختلفة منها الأمريكى والروسى والألمانى والشرقى . وألوان متغايرة وشعوب شتى جمعها الدولار الأمريكى وما زال يسندها لمقاومة الحركات الجديدة التى بدأت فى الوطن العربى . فقد خشى الأمريكان على مصالحهم وخافوا على نظامهم .

ألا ترين أن هذا العمل بذاته خدم المصالح اليهودية فى تكوين الدولة الجديدة ؟

لا أشك فى هذا ولكن أمريكا تهمها مصالحها بالدرجة الأولى وهى تخشى من اتحاد العرب وتقدمهم وتعتبر المنطقة العربية قوة يخشى منها فى المستقبل وقد أيدتها أوربا فى هذا الرأى وهى تخاف من وحدة العرب وتقدمهم وتخاف من عودة التاريخ العربى وهى تحاول جاهدة مع الاستعمار الغربى وقف عجلة التطور ولكنها لم تقدر ونحن الغالبون .

ضحكت نورية وقالت : أصبحت متحمسا أكثر من اللازم وللأسف الشديد أنكم شديدو الحماسة والإحساس وهذا هو الاختلاف بين الشرق والغرب ثم استدركت :

وقد تركتم جزءا من حماستكم وعواطفكم الرقيقة فى الأندلس .

لا شك يا نورية فى هذا القول لاننا نحتاج إلى تطور حضارى ونحكم العقول فى كثير من القضايا فقد صدقنا إحساسنا المرهف وعواطفنا العميقة عندما قيل لنا فى منتصف الليل انتظروا ولا تكونوا البادئين فى الحرب وكنت

أتمنى أن أكون البادئ الظالم الذى يحاربه العالم على أن أكون المظلوم الذى يرحمه العالم .

فأنا أفضل القوة والاحترام على الخسران والرحمة لأن العالم لا يعرف غير القوة سلاحا .

قالت : أنا على عكس ما تقول

أدير خدى لمن يضربنى

قلت : هذا عهد مات وزمن فات .

وتقدمت إلى وأدارت خدها وقالت أضربنى على خدى حتى تهدأ ولعن الله الاستعمار واليهود والصهيونية .

وكانت الساعة تمضى سريعا فقالت فجأة :

الجوع كافر ..

إلى المطعم لنأكل .

جلست قبالتى ثم قالت :

متى تسافر إلى لندن ؟

قلت : تعالى معى اليوم !

قالت : إلى أين ؟

قلت : إلى الجراج !

ضحكت وقالت هل اشتريت السيارة .

قلت : أخيرا بعد صراع مع البائعين .

ولماذا الصراع .

قلت : لأنى لا أملك مبلغا لشراء سيارة جديدة .

فأربد وجهها وقالت :

لم لم تقل هذا ؟

قلت : العربى لا يأخذ من سيدة ولو كان دينا

قالت : هل نحن أقل منزلة فى وطنكم من الرجال .

قلت : لا ولكنكم فى مكان القداسة والإحترام .. !

قالت لا أفهم ! !

قلت متى وصل المرء إلى مكان الرفعة فلا يقدر االتابع أن يطلب شيئا .

قالت أنا أكره عبودية الإنسان

قلت ولكنى أحب عبودية الجمال وأهيم بها .

تخلصت من سؤالى أو تريد ألا تجيب لست غبية بدأت أفهمك لا جدال فى أنك ذكى وإلا لما وصلت إلى مركز القيادة فى الهندسة ولكنى مثلك .

قلت : يسعدنى أن تكونى ربه إلهامى وأكون شاعرا .

إذن متى تسافر ؟

متى صدر الأمر من صاحبة الأمر ؟

قالت : غدا

قلت : سمعا وطاعة .

وعلى حين غرة أطرق كامل إلى الأرض وقال : هنا كانت بداية الشك وكانت بداية العذاب الأول لى ونظر فى وجهى وقال :

لولا ذلك اليوم لكنت تزوجت نورية ولوجدتنى معها عوضا عن أن تجدنى

أسير فى أزقة (ايرل سكوت) فى الطريق إلى نوتنج هل كيت Notting Hill Gate

ونظرت إلى وجه صاحبى فرأيت الدموع تسيل من عينيه بحرارة غريبة وتركت صاحبى يبكى ويبكى حتى استراح وهدأت روحه واستقرت أحاسيسه الثائرة .

وأخذ الكأس بيد وأخذ الأخرى بيد ثانية وأرن الكأسين وقال : تعيش نورية

وما أسرع ما شربهما ونظر إلى وقال :

صب فى كأسى وأنا سأملأ كأس نورية ثم ضحك واعتذر وقال :

ولابد من شكوى إلى ذى مروءة يسليك أو يشجيك أو يتوجع

قلت : الثلاثة فى آن واحد وأرجو أن أكون من ذوى المروءة واندفع دون أن يرد على .

يا ليتنى ما ذهبت معها . ويا ليتنى لم أعرف ما تصنع ولكن حبى أعمانى عن كل شىء فقد طلبت منى أن أصاحبها إلى مخزن كبير لشراء الهدايا وبدأت تشترى الهدايا وترددت فى الشراء وأنا معها وكأنى حرمتها من الحرية فتشاغلت عنها وقلت سوف نلتقى بعد ساعة عند هذا الباب وذهبت إلى جناح الرجال لشراء بعض حاجتى من الملابس . وما أحتاج إليه من أربطة لآخذها لأصحابى من لندن .

ولما ذهبت وجدتها قد سبقتنى واشترت جملة هدايا لرجل ! !

فجن جنونى وعلمت أن لها صديقا فأحجمت عن طلب الزواج إنها تريد أن تختار أى الرجلين وكنت أظنها تريدنى وليتها اشترت ما تريد له من لندن .

قلت : وما كنت تصنع

كنت أنوى أن أتزوجها فى لندن فقد كتبت لحجز الشقة لأتزوج فيها .

قلت : ويحك .

شراء ملابس رجالية منعتك من زواجها .

قال : الهاتف الداخلى .

أنا رجل وأحس بالأنثى متى خدعت الرجل .

أترضى أن تبقى شقيا طول عمرك لسوء ظنك ؟

قال: الكرامة والاعتزاز بالنفس طبع شرقى فلو تزوجتها لكانت حياتى كلها شقاء ما دمت أعرف أن رجلا فى حياتها وكان حبى يمنعنى من طلاقها .

ويحك شاعر تحب أن تعيش فى الشقاء بل تستعذب الشقاء . لم لم تتزوجها وتتمتع بها ثم تتركها بعد أن يتجلى الأمر لك .

كان ضميرى يعذبنى لأنى لا أريدها تتعذب .

إن كانت تحبك فقد تعذبت كثيرا .

لا أظن .. إنها تريد زوجا لا تريدنى كاملا .

هل أنت متأكد من قولك ؟

إحساسى كان صادقا وقد امتحنتها فما أفلحت فى الأمتحان . والمستقبل أثبت رأيى فقد تزوجت بعد وصولها مدريد .

لم أدخل فى نقاش مع صديق فما زال يعيش فى فكر شرقى قديم ونسى حياته فى أوربا فالفتاة وجدته خيرا من صاحبها وفضلته عليه ولكن الغيرة القاتلة العمياء حرمته من فتاة جميلة مثقفة رائعة ولم أرد أن أنقد صاحبى فقد كنت فى ضيافته وسكت حتى لا أجرح إحساسه وأشعره بالندم وبعد حديث طويل عنها ..

ألفيت صاحبى ينتقل بسرعة إلى الحديث عن الطريق العام الذاهب إلى ليج ليصل إلى القنال الإنكليزى فقال :

كانت السفرة ممتعة ونسيت كل هواجسى وطابت نفسى ونويت أن أفاتحها فى الزواج فى لندن وأن أعد لها المفاجأة الجميلة عندما تجد نفسها فى الشقة الجميلة مع الأخوان والأحبة ونويت أن تكون زهرة المجتمع بأن أدعو جميع المصريين الموجودين فى لندن وأساتذتى فى الجامعة ومن يعمل فى سفارتنا وكانوا أصدقائى وزملائى فقد ملأت السفرة قلبى ثانية بالرضا والسرور والسعادة وكأنى نسيت ما رأيت .

وفى الطريق إلى ليج قابلنا طالبين وطلبا السفر معنا وهى عادة غريبة أن يسير الطلاب ومحبو السفر على الأقدام للمتعة والمغامرة ولتغيير حياتهم بعد أن يصيبهم الملل وكانا طالبين أمريكيين يدرسان فى فرنسا وزارا أوربا على هذه الطريقة . كانت فتاة حلوة وفتى بملابس الشباب المهملة التى ألفناها وعلى ظهر كل منهما حقيبة فيها ما يحتاج إليه المسافر وقد ينام الشاب منهم فى ناد من نوادى الشباب المنتشرة فى كل مكان بأسعار زهيدة أو فى الشارع تحت شجرة أو فى مخزن للتبن استمتاعا بالتغيير وحبا للتنويع وزهدا فى المدنية وترفها

والحضارة وتطورها واطمئنانا إلى الطبيعة فى كل شىء وجها لوجه مع السماء وحيث الشجر والطير والأرض والحشائش والمرتفعات والوديان والمروج .

وقفنا وأخذناهما .

كان الشاب يدرس الآداب والفتاة مدرسة فى مدرسة وسرعان ما جمعت السيارة بيننا بالألفة والحديث وأخذنا نغنى وكأن العالم فى واد ونحن فى النشوة والغبطة فى واد .

لم يسألا عنا ومن نحن وإلى أين ولم نسأل من هما وإلى أين ولكنا فهمنا كل شىء من المناقشة والحديث . ولكن الروح الشرقية دفعتنى إلى السؤال واذا بلا وعى أتحدث فى السياسة وبمشكلة العرب الكبرى : فلسطين .

قلت له : لماذا تناصرون اليهود .

فضحك وقال : لأنهم مواطنون أولا . ولأنهم مظلومون ثانيا . ولأنهم أذكياء ثالثا . ورابعا وخامسا .

فقلت له : هل ترضى أن يأخذ الروس من بلدك كالفورنيا أو واشنطن ؟

فانتفض قائلا : كلا وألف كلا .

إذن كيف ترضى أن يأخذ اليهود أرضا عربية

قال : لأنهم كانوا فيها وهم أهل البلاد قبل العرب .

قلت : ألأن الأسبقية والأفضلية للساكن الأول ؟

قال : بلا شك .

قلت : لماذا إذا تحاربون الهنود الحمر . أهل البلاد قبلكم بقرون وأنتم طارئون ؟

كنت أحس بالقلق فى وجه نورية . ولما وصلنا إلى هنا إرتاحت وقالت : صحيح لماذا تحاربونهم .

ولما أحسست بأنه غلب على أمره رغم المسوغ الذى قدمه بأنهم حضَّروا بلاد أمريكا . أردت كسبه صديقا ولا أخسره مغلوبا . إذ ما فائدة أن أغلبه فى المنطق وأجعله عدوا لأمتى . طوينا الحديث وأخذت أتودد إليه وأتحدث حديث الصديق وكانت نورية أكثر عطفا عليه وحنوت على صديقته لأغير نورية وأضحك منها وتحول الحديث إلى الحب والصداقة وسرعان ما عاد لنا الصفاء نزلنا فى أقرب مطعم ودعوناهما معنا وأكلا معنا ما لذ وطاب وأشبعنا البطون لتستحى العيون .

أحسا بالود والصداقة وأحسا بأنى عربى وأخذت أتحدث إليهما بملء العقل لا العاطفة وكانت مناقشات هادئة بين الفريقين وكانت نورية تدلى بالحجج وتثير مشاعر الشابين وكنت أحدثهما عن الفظائع التى حدثت فى دير ياسين وما اقترفه الصهاينة فى فلسطين . كانا مثقفين ثقافة عميقة ولم يكن الإقناع سهلا وفى سفرة واحدة ولكن أعرف أن جميع دعايات الصهيونية قشرة فارغة . أخذت أبعدها بكل هدوء حتى ظهر الطبع الإنسانى الصافى فى نفسيهما. وبلا وعى وبلا شعور صاحت الفتاة : أنت مقصر. ثم أردفت أقصد أن العرب هم المقصرون .. لماذا لا يحدثنا العرب عن قضاياهم ! وعدد العرب فى أمريكا كثير ؟

قلت : لعلهم خافوا من جرائم اليهود .

العرب شجعان فهل يخافون الصهاينة ؟ ولماذا لا يضحى العرب ولا يستمرون فى النضال ؟ فاذا قتل واحد وجب أن يحمل رسالته الآخر . بدون التضحيات لن يكون للأمم كيان .

ولا تغضب إذا قلت لك أنتم كثيرو الكلام وقد أضعتم جهودكم فيه . وبعض الزعماء أدعياء وأثبتت الحوادث أنهم أول من يترك الميدان . لماذا لا تحولون الرأى العام فى أمريكا ؟ لماذا تعادون الشعب الأمريكى دون مبرر وهو مستعد للمساعدة والمغامرة ؟

قلت : معاذ الله نحن لا نعادى الشعوب ولكن الحكومات الأمريكية كانت دائما مع الصهيونية .

قال : لأن لهم صوتا. ولأنهم فى وسط أمريكا ومع الشعب الأمريكى فما صنع العرب المقيمون فى أمريكا ؟ هل حاولت الحكومات والشعوب العربية الاتصال بالشعب الأمريكى وإفهامه الحقيقة ؟

أتدرى أنى كنت أخاف من كل عربى ؟ ! فقد صور العربى لنا بأنه يأكل الناس وأنه قاس وأنه غير متمدن وأنه مازال يغزو ويفترس وأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يركب غير الجمال ولا يحب غيرها .

انشروا بيننا الكتب وانشروا الصحافة فأموالكم كثيرة . دعونا نفهم العرب . خذوا منا من يسافرون إلى بلادكم وسوف تجدون الشعب الأمريكى بعد ذلك معكم ولن يدفع بعد ذلك الأموال إلى إسرائيل .

قلت : يا ليت قومى يعلمون ويعملون ! !

كانت السفرة رابحة ، فقد أعطانى الرجل المفتاح وفتح الأبواب البعيدة ! ولكن هل أقدر على العمل ؟ !

ولما وصلنا أول ليج استأذن هو وصديقته فى النزول وأعطانى عنوانه لأراسله مع صديقته ولكنى لم أقدر على هذا فقد خفت أن أكتب إليه من رقابة البريد وبخاصة أنهما من بلاد الاستعمار وكنت أكتفى بإرسال بطاقات عيد الميلاد إليه دون عنوانى .

وسرت وأحسست بالألم واستغرقت فى تفكير عميق لا أعرف ما أفعل .

أين أنت ؟

وكأنى استيقظت من نومى على صوتها .

نحن هنا .

هذه ليج قد تركناها . ألا تحب هذا الفندق المنعزل ؟

قلت : نعم خير منزل ليلة واحدة .

هل أخبرها بأنى أخاف فى وطنى من الرقابة أخاف من الأمن وأخاف من الشرطة وأخاف من الجواسيس ، وأخاف حتى من زملائى الانتهازيين .. سكت وتصنعت الابتسام وبعدها ابتسمت ثم أوقفت السيارة بجوار الفندق فجاءنى شخص عندما شاهدنى أنزل جميع حقائبى وأفرغ السيارة وقال خذ ما تحتاج هذه الليلة واترك بقية الحوائج والحقائب فى مكانها .

نظرت إليه بارتياب أأترك كل شىء على الأرض أنه من المستحيل على أن أطمئن ونظرت إليه صاحبتى وقالت : لا تقلق من الفوضى فسوف أرتب كل شىء فى الصباح وما درت أنى قلق خوف السرقة .

كان الترحيب حارا بنا فقد كنا الشخصين الوحيدين الغريبين ولم تكن الساعة قد دنت بعد من العاشرة عندما طرقت الباب . وقد كنت ارتميت بملابسى على الفراش واستغرقت فى نوم عميق فقمت معتقدًا بأن الصباح قد أشرق وقبل أن أقول أدخل أو الفظ كلمة واحدة فتحت الباب وعجبت لهذا المتطفل المستعجل الذى لم ينتظر حتى أقول له تفضل .

ولما أغلقت الباب وجدت فتاة فى ملابس السهرة وقد ارتدت الملابس العربية القديمة وتنقبت بخمار أسود ووقفت فى وسط الغرفة دون كلام وبدأت ترفع الخمار الجميل فإذا نورية تضحك وتقول بسخرية وغيرة عجيبة . أنا أحلى أم بنات الإنكليز ؟ !

قلت : أنت أجمل فتيات الدنيا .

لماذا تذهب إلى لندن مادمت تجدنى أجمل الفتيات فى الدنيا فالدنيا إذن معك والجمال معك .

ضحكت وقد غلبنى المنطق قلت :

أريد الآخرة والقبح .

لماذا تستعجل الآخرة ولست شاذا مادام فى هذه الدنيا من يريدك أن تكون معه ؟ وهل تظن الآخرة خيرا من الدنيا وأنا فيها . إن الدنيا جميلة بى والآخرة حلوة اذا انتقلت إليها إنه غرور إنه كبرياء ألا تريد أن تقول ذلك ؟ .

وارتمت مثل الطفل بين أحضانى تبكى وتجهش بالبكاء . وسرعان ما جففت دموعها وأخذت أداعبها فاستردت حالتها الأولى وقالت ما أحلى

نسيان الدنيا معك وما أجمل أن أنسى الآخرة بوجودك لماذا لا تأخذنى إلى الصحارى المشرقة . إلى الجمال إلى الخيام إلى الرمال سأكون جارية مخلصة وسأكون سعيدة أمينة وسأكون خادمة مطيعة ـ ثم سكتت وأطرقت إلى الأرض وقالت .. لا يهمنى عدد زوجاتك دعنى أكون إحداهن . العاشرة . الحادية والعشرين لا يهم لأكن معك وأخدمك .

وإن كن مائة فهل يمكن أن تعيشى معهن ؟

ولو كن ألفا من بنات الشرق والغرب يكفى أن أراك فى الصباح والمساء . يكفى أن أعرف أنك قريب منى .

يالله من حب المرأة وعمق مشاعرها وصدق إحساسها إسمعى يا نوريه . إنك أخطأت فلسنا نعيش فى القرون الوسطى نحن شعب ثقافة وحضارة وزاد الإسلام فى تعميق القيم الروحية والإنسانية والفضائل فى نفوسنا .

هذا ما أحببته فيك هل تريد أن أكون مسلمة لتؤمن بصدق شعورى وعمق إحساسى .

قل سأكون طوع أمرك يا حبيبى. ثم أخذتنى بين يديها فى قبلات محمومة وبدموع حارة وكلمات ضاعت بين همسات القبل وأشواق القلوب .

وحانت منى التفاتة إلى المرآة فوجدت نفسى بملابس النوم وقلت انظرى من هذا ؟ .

قالت : هل أنظر إلى الملابس أنا أحب ما تحوى الملابس .

ذهبت نورية إلى الحمام وفتحت الحنفية وصبت فيه الصابون وسمعتها فى الداخل تقول :

جاريتك الواحدة والعشرون تسأل !

ضحكت وقلت : ما تريد سيدة الجوارى ؟

قالت : هل تريد الماء ساخنا أم دافئا ؟

وكنت ارتديت الروب وهممت بالدخول إلى الحمام .

توقفت فى الطريق. ثم انحنت بكل احترام وأدب وعلى محياها السخرية والدعابة وقالت :

ليتفضل مولاى شيخ العرب . عفوا شيخى وسيدى إلى الحمام وهل يأمر جاريته أن تغسل رجليه .

قلت : سيأمر سيدك بمساعدته فى تدليك ظهره . قالت : هل يريد الجارية عارية أم نصف عارية ؟

قلت : لا هذا ولا ذاك أريدها فى ملابسها .

قالت : سيدى محافظ . هل هو شيخ مسجد . أو راهب فى كنيسة ؟

لا ولكنه يريد أن يستحم فقط .

وهل هناك داخل الحمام غير الاستحمام يا سيدى الشيخ وأغلقت الباب بعنف وألم وسرعان ما فتحت الباب وقالت متى يأمر سيدى فسوف ألبى النداء .

ثم خرجنا إلى ليج الجميلة الساحرة .

وطفنا بها ولم أكن أرى غير نورية فى ضحكات ليج وجمالها وحسن تنسيقها . إنها جميلة . إنها جميلة . إنها مدينة حلوة خفيفة الظل ساحرة المناظر وما رأيت السحر والجمال إلا لأن نورية كانت تساقينى هذا الجمال . لأنى وجدت الحسن فى عينيها وألفيته فى حديثها وشربت الهدوء فى حنانها وعذب حديثها .

نحو القنال

ودنت ساعة السفر نحو القنال الإنكليزى للعبور إلى القارة كما يسميها الإنكليز فهم يرون أنفسهم قارة غير القارة الأوربية ويرون أنهم هم الشعب الأصيل وغيرهم دخلاء وغرباء فعجبت نورية من هذا وتساءلت كيف ؟

تصورى أن سيدة إنكليزية عجوزا ذهبت إلى إيطاليا ولما دخلت الفندق سألها صاحب الفندق :

هل أنت أجنبية ؟

أجابته بغضب : أنت أجنبى

كانت السيارة تطوى المسافات فى نشوة عجيبة وكأنها جمال أجدادنا عندما سالت الصحراء بها فقد سالت الطرقات بالسيارات فى مختلف أنواعها وحجومها تتسابق على هذا الطريق الممهد المرصوف الجميل الذى قل أن تجد فيه ما يعكر صفو المسيرة المستمرة .

وبلا وعى أو شعور اندفعت نورية فى غناء عذب شجى لم أفهم من معانيه شيئا ولكن العواطف المتدفقة كانت ترتسم فى كل كلمة تقولها وفى كل نغمة تنشدها كانت تغنى لى وكان الحب تمثالا ، أراه فى كلماتها فى أجمل صور النحت والرقة تبدو فى أزهى ثيابها وأحلى أريجها وشذاها . لم تكن تغنى كان اللحن نفسه يطرب عندما يخرج من شفتيها .

وبلا وعى أخذت أغنى أغنية عربية لو سمعها أخواننا الملحنون والمغنون لهربوا فرقا وخوفا من صوتى ولكنها كانت تفهم أن القلب هو الذى خرج على الشفتين يغنى ألحانه ، والعواطف اشرأبت ترسم لها الخلجات والأحاسيس واللحن نفسه غدا يتلوى من شدة الوجد .

أزحت كل هموم الدنيا ونفضت عن قلبى كل أوجاع الحياة فقد أحببت الألم وصادقتنى الأحزان ولما برمت بهذه الصداقة وجحدت ذلك الحب ، عذبتنى نفسى وأرادت أن أستمر فى العذاب فقد ألفته وأصبح جزءا من كيانى .

ولم أكن أدرى بأنى استغرقت فى شرود وحيرة وأنى نسيت أننى أسوق فى شارع عام فقد سرحت فى خيال الشقاء والهم وأنا بين أحضان السعادة والهناء وبلا شعور قلت :

أحمد الله .. وتممت يارب أغنية خير ولا تزد فى هومى. وكأنى استكثرت على نفسى ساعات سعادة اختلستها هذه السفرة من أنياب الدهر.

وبلا شعور صرخت آه .. فقد لكزتنى نورية وقالت :

أين سرحت ؟

أين ذهبت ؟

عد أيها السائق إلى وعيك ولا تنتحر مادمت معك .

وضحكت على نفسى فأنا فى السعادة وأريد الشقاء..

قلت لها :

لن أنتحر لسبب واحد .

قالت : ما هو السبب ؟

قلت : حتى لا أزعجك فى موتى .

وبلا شعور صاحت :

كفى يا كامل بالله كفى لا أحب الموت ولا ذكر الموت نحن فى أتم الرضا والحبور فلماذا تفسد علينا هذا الجو وهل هذا التفانى فى إرضائى يسعدنى .

لماذا تخافين الموت !

أجابت وكأنها تتحدث بحكمة الفيلسوف :

الموت هو الظاهرة التى أرهبت البشر وأفزعته وأقضت مضجعه لأنه لم يقدر على الإفلات منها .

قلت : ولولا الموت لما كبح جماح البشر ولما قامت الأديان لأن الإنسان لم يقدر على حل كنهه ولما يئس فى مقاومة الفناء حاول بكل طاقاته أن يخلد جسمه بالتحنيط أو هرم أو بناء سامق .

هناك ضحكت نورية وقالت :

وهكذا عمل أجدادك الفراعنة الأهرام وحنطوا جثث الملوك والزعماء .

قلت : وللآلهة من الحيوانات التى عبدها المصريون القدماء . فأردفت :

يا ليتنى أزور مصر وأرى الأهرام .

الأمر سهل فأنت مدعوة فى الشتاء عندى .

الدعوة مقبولة إذا أتيحت لى الفرصة عسى أن أعرف الموت والخلود إذا ما رأيت المتحف المصرى وحضارة الفراعنة .

وسرحت هى فى خيالها وتركتها تتمتع فى الخيال المجنح ثم قالت ما أجمل الإيمان بالآخرة وبالبعث فإن المرء ينام مرتاح النفس ، والإيمان وحده راحة القلب ويا ليتنى ما تعلمت وأخذت أفكر فإن الفكر هو العذاب والفلسفة هى الجحيم . ونظرت إلى وقالت : ألا أسمعك خيرا من هذا العذاب وذلك الجحيم وانطلقت بأغنية عربية :

يارب تم الهنا واتلم شملى عليه

بلغت روحى المنى والقلب سلم عليه

لـــكن يـــاربى الـــفـــرح زاد بى

والفرح لو زاد عن حده تكثر عليه الأوهام

وليه يا قلبى الفكر ده ليه والدنيا حلوه فى عينه

يا هل ترى خايف من إيه خايف الزمان يغدر بىَّ

كانت مفاجأة غريبة أدهشتنى أن تغنى هذه الأغنية وباللغة العربية ولولا ما اعتور الأغنية من لكنة أجنبية لحسبت المغنية عربية . كان صوتها يعذب ويرق ولحنها يسحر ويأخذ بالقلب واللب ولا أدرى هل لأنها غنت بالعربية أم لأن الحياة كانت معها حلوة فإن الإنسان قد يسمع أغنية فى وقت من الأوقات فلا يحس بحلاوتها فى وقت آخر وقد يطرب لنغم حبيب لا يؤثر فيه فى زمان آخر .

أين تعلمت هذه الأغنية يا نورية ؟

من أمريكا فقد كنت أدرس فيها وكانت لنا جارة تغنيها دائما وشرحت لى بعض معانيها .

هل تعرفين معانى الكلمات ؟ .

أفهم بعضها والآخر أعرفه بالقرينة .

ورغم النشوة والطرب الذى جعلنى أسابق الريح فى السيارة فقد بدأت أشك بأن الجارة رجل لأن فتاة أجنبية لا تحفظ شعرا بلغة أخرى إلا إذا كان هناك رجل وتلك سنة ألفتها وعلمتها فمن هو هذا الرجل ؟ .

ما كنت أريد أن أضيع السفرة بالسؤال ولكن الشك تسرب إلى روحى ورجوت نورية أن تكتب لى القصيدة التى غنتها لأحتفظ بها بخطها .

ومد صاحبى يده إلى جيبه فأخرج ورقة فيها الأغنية وأخذ يقبلها ويبكى .

قلت له : أنت تغرس الشك فى نفسك وتزرعه فى روحك ولابد أن يؤذيك الشك كالشوك .

برمت بهذا الإنسان المتناقض وأردت أن أغير مجرى الحديث ! ولكن وجدت فى الحديث راحة نفسية له وكأنه أراد الاعتراف والندم ليكفر عن ذنب عميق الجذور وقديما قال الشاعر :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة
من الوجد أو يطفى شجى البلابل

وأحس صاحبى بأنى برمت به وأن حياته أصبحت تتناقض مع الواقع أو أنه يناقض الواقع ولا يفهم حياة الغرب وما فيها فنظر إلى نظرة كلها عتاب وقال :

دوائى ودائى عند من لو رأيته
يقلب عينيه لأقصرت عن زجرى

فأقسم لو أصبحت فى لوعة الهوى
لأقصرت عن لومى وأطنبت فى عذرى
ولكن بلائى منك أنك ناصح
وأنك لا تدرى بأنك لا تدرى

عجبت لمهندس يحفظ شعرا عباسيا وتسعفه الذاكرة بأن يستشهد وقت الاستشهاد .

وأردت أن أسعده بالحديث عن نورية قلت وماذا بعد ليج ؟

وارتشف من كأسه وأخذ رشفة مثلها من كأس نورية وقال :

سارت بنا السيارة أو سرت أنا بالسيارة نحو بروكسل متعة لى أخرى أن تكون نورية محدثتى طوال الطريق وكانت قد اشترت من الطعام والشراب كثيرًا وفى كل مرة تلقمنى كالطفل أو تسقينى حتى أرتوى .

وكان الليل قد أرخى سدوله عندما وصلنا بروكسل وقد وجدتها غير بروكسل فقد صنعوا فيها نفقا وتغيرت خارطة المدينة .نة .

تغيرت المدينة كثيرًا بالطريق الجديد الذى أعد للمعرض الذى أقيم فى بروكسل ولكنه سهل الكثير فى المرور وأضاع على سبيلى وصعب على أن أجد مكانى فقد وضع نظام للمرور جديد كان سببا فى جولة طويلة حتى وجدنا أنفسنا بعد العناء والمشقة والتعب أمام فندق فيكتوريا وسرعان ما أوقفت السيارة ووجدنا مكانا لطيفا . كانت الحياة جميلة بل أنها غدت جميلة والجائع يأكل ولا يحس بالشبع والظمآن لا يحس بالرى إلا وقد امتلأ وفاض ولكن جمال الحياة

ولقاء المحب ، لا يحس الإنسان أنه شبع منه وارتوى ولولا الهواجس العميقة لكانت سعادتى لا تعدلها سعادة .

فى صباح حلو مشرق وجو قلما تجده فى أوربا غادرنا بروكسل إلى الشاطئ نحو القنال الإنكليزى . وكان البحر هادئا ضاحك السمات بسام المحيا وصعد الركاب على العابرة يتمتعون بالشمس ، ومنهم من لبس ملابس السباحة واستلقى لتصل أشعة الشمس إلى كل ذرة من جسمه ، ولا تختلف المرأة عن الرجل والطفل والعجوز الكهل كلهم يعبدون أشعة الشمس ويستمتعون بها وكأنهم نشاوى بها لذة ورضا .

وصلنا الشاطئ الحلو وأردنا أن نقضى الليل فى فوكستون ولكن الأمطار بدأت تهطل وتغير الجو فى الساحل الإنكليزى وبردت الدنيا واستأنف أصحاب السيارات السير نحو العاصمة الكبيرة وأدركنا الليل وأدركنى التعب وسكتت نورية صامتة شاخصة ببصرها نحو الظلام وكأنها تريد أن تخترق هذه العتمة القاسية وكانت قطرات الماء تتحارب بعنف وقوة مع الماسحة التى أخذت تبذل جهدا كبيرا لتصفى الزجاج وانتصرت على المطر وطالت المسافة وبدأ الجوع يدق بعنف والبرد يزيد ونحن نبحث عن مكان نقضى فيه الليل .

ما أقسى البرد والجوع والتعب والظلام على الغريب الذى لم يعتد السياقة فى الطرقات الضيقة بين فوكستون ولندن فقد كنت أسوق السيارة وأمامى خط طويل وورائى خط أطول وكلهم قد ضبط أعصابه وسار بهدوء فقد خفف الجمع السير حتى قيض الله مخرجا فأخذت السيارة تسرع فى الحركة وتجد وانتابنى شعور لذيذ عندما صعد المؤشر إلى الثمانين لأن الطريق تشعب وبدأت السرعة

تزداد ولكن الجهد والاصطبار والجوع والبرد والظلام هدت الأعصاب فقد نامت القرى التى كنا نمر بها ونام أصحاب الفنادق الصغيرة ولم أعد أرى جملة :

(فراش وفطور) أو (يوجد مكان) .

وزاد فى الملل أن نورية جلست إلى جانبى ترقب الطريق وأصبحت هى الهادية لأن السياقة تحولت من اليمين إلى اليسار ولم أعد أرى من بعيد الجهة المعاكسة والسيارة المقبلة من المنعطف ولما اجتازت السيارة إحدى القرى شعت الأنوار على جملة (فراش وفطور) .

وبلا شعور وقفت أمام الكلمة أتفحصها غير مصدق وقلت للرجل الواقف بالباب .

هل يوجد لديك مكان لنا ؟

وكأنى غير مصدق للجملة المعلنة بالضوء الساطع فأجاب : نعم وهو دافئ جميل يصلح لكما .

وكأنه أحس بالبرد الذى أخذ منا مأخذه وقدم الرجل لى ورقة أكتب فيها اسمى وعنوانى ثم قادنى إلى غرفة جميلة ونظيفة فيها سرير واحد لشخصين .

ألا توجد غرفتان ؟

أو سريران منفصلان ؟

قالت زوجته التى نظرت إلينا باستغراب :

هل تخاصمتما فى الطريق ؟

أليست أرخص لكما وتناسبكما ؟ ! وإذا نمتما فى فراش واحد فسوف تصطلحان فى الليل ! .

أليس كذلك يا جو ؟ .

ولكزها جو وظهر عليه الخجل ولكن النكتة أعجبته ..

وأقفلت الباب وهى تقول :

تصبحان على خير وصلح .

وكانت النغمة لطيفة فيها أكثر من إشارة .

ولما خلونا فى الحجرة .. نظرت إلى وجه نورية وقد ارتسمت على وجهها علامة من الرضا والهدوء ولم أشعر باحتجاج أو برفض ثم أردفت :

ليس هنا اختيار !

ورضينا بالقدر .

وأنزلنا الحقائب .

وشعرنا بالجوع ومددت رأسى من خارج الشباك الذى كان يفصل بيننا وبين ربة الدار ثم أشرت لها على بطنى فقالت :

الطعام قليل ولا يكفى ولكن هناك بقايا فى القدور قلت لها اجمعيها فنحن نحب (التورلى) .

قالت : هل تشربان ؟

قالت نورية :

ماذا عندك من مشروب ؟

كل ما تريدان

قليلا من البراندى

وأنت ؟

قلت : بيرة مع البراندى

وبينما كان زوجها يجلب الطعام والشراب .. قالت :

إنكما سعيدان لأنكما وجدتما هذه الغرفة بعد منتصف الليل .

قلت لها :

إنك المحظوظة لأنك وجدت من يستأجر الغرفة بعد منتصف الليل .

بهتت للجواب وضحكت وقالت : صحيح كم مرة تبقى عندى محلات فارغة .

وأحضرت المائدة .

وأخذت أخلط البيرة بالبراندى .

قالت ربة البيت :

ما هذا المشروب ؟

إنه شراب خاص بى ، إنه كوكتيل «كامل» .

عادت ربه المنزل ومعها كأسان وجلست معنا على المنضدة وقالت : معذرة ...

أريد أن أجرب كوكتيل كامل .

وأخذت تشرب بشهية عجيبة وتزيد فى الشراب وأخذت تقدم الشراب بسخاء ونظرت إلينا وقد دارت الخمرة برأسها :

كم يوما ستمكثان عندنا ؟

هذه الليلة فقط .

الليلة فقط ! ؟ !

للأسف الشديد إذن زدنى يا كامل واسقنى حتى الصباح .

لماذا الأسف والنزل حافل بكل حجراته وغرفاته ؟ ولم تشربين حتى الصباح .. ؟

أريد أن أعب من كوكتيل كامل كل يوم ..

وسكتت برهة وقالت بمرارة :

لكى أنسى غربة الروح فى ظلال الشرق وروحانيته وأرجو أن نراكما فسوف أشرب من هذا الخليط الجميل دائما .

ثم نظرت إلى بابتسامة سكرى وقالت :

مستر كامل

نعم يا سيدتى

إنها سعيدة ويا ليتنى مثلها ! !

أنا السعيد لأنها أملى الحلو وحياتى المشرقة وروحى النضيرة .

مستر كامل ، قالتها وتلعثمت .

نعم . وران صمت ثم أخذت الكلمات تخرج بهدوء إنها سعيدة .. المرأة حسود .. أنا أحسدها .

قلت باللغة العربية :

عين الحسود فيها عود .

نظرت إلى ونظرت نورية إلى لأنهما لم تفهما ..
ولأول مرة جمعنى ونورية سرير واحد .
وفى الصباح المبكر سمعت طرقات على الباب ودخلت ربة النزل تحمل الفطور .. وجلست غير بعيد .. وقالت :

هل ستعودان ثانية .. قلت : الله أعلم .. هل يمكن إعداد قائمة الحساب .

فوجدتها قد كتب فيها مستر كامل والدكتورة نورية ووضعت الوصل فى جيبى .

وقلت لنورية :
هذه شهادة زواج فى العرف الإنكليزى يمكن أن تقيمى على الدعوى وتستشهدى بهذا الوصل وربة الفندق شاهدة على أننى قضيت الليل معك فى غرفة واحدة .

لا أريد الزواج بالإكراه .. وسكتت ثم أردفت :
إلا إذا جاءنى طفل من إنسان أحبه وأنت لا تريد .

قلت يا نورية : نحن لا نقرب غير ما أحل لنا ولو قتلنا العشق هذه شرعة العرب الأوائل !

وإذا قتل هذا العشق الفتاة التى تعشق العربى ؟ !

إنه نادر الحدوث .. فالرجل هو الذى يموت عشقا ، وتاريخ المحبين شاهد عدل وفى التاريخ شواهد مثل روميو وجولييت الخيالية فى تاريخنا مجنون ليلى وعبد الله بن العجلان النهدى وجميل بثينة !

هل مات كثيرون من العرب عشقا ؟

تاريخ العشق شاهد بل إن هناك قبيلة اشتهرت بموت العاشقين .

هل أنت منهم ؟

أنا لا أريد أن تموت فى سبيلى يكفى أن تذكرنى فى وطنك وتسمى عمارة من عماراتك باسمى .

ورفع كامل كأسه ونظر فيه ثم سكت سكوتا طويلا خيم على جميع حجرته .. وتنهد وقال :

ليت شعرى هل تذكر نورية هذا الليلة أم أنها سوف تنسانى وتنساها ؟ .

وأخرج الوصل من جيبه وأخذ يقبل اسمها ومن ثم طواه بعناية ورفق وحنان ومسح وجهه به وأعاده إلى محفظته ونظر إلى وقال :

ليس فى الدنيا باق سوى الحب ولن يعيش مجتمع بسعادة بغيره ولا تدوم حياة رافهة بسواه .. إنه يزيل العقبات ويسهل المشكلات ويهذب الشعوب ويحضر المتوحش ويصقل حواشيه ..

هل رأيت عالما بغير الحب .

قلت : الواجب فوق الحب ..

قال باستغراب :

الواجب ؟ ! أى واجب ؟ !

قلت الواجب الوطنى أو القومى أو الإنسانى .. أو الشعبى أنا أفهم الواجب

الإنسانى والوطنى بسهولة وأدركه دون عناء .. لكن ماذا تريد بالشعبى والقومى ؟ !

وجدت صاحبى وقد تأثر بالفكر الغربى وأصبح جزءا منه وساعدته قاعدته الفكرية القديمة على هذا فأخذ ينسى قومه وشعبه ولا يدرك معنى الإخلاص القومى والشعور الشعبى بعد أن تخطت أوربا هذين المعنيين فى وطننا وشرقنا العربى وأخذت أوربا تحس بالدولة بعد أن أدى الشعور القومى واجبه فى الاتحاد الألمانى والوحدة الإيطالية وأكد معنى الدولة بروز أمريكا بقوتها ووجود سويسرا بثلاث قوميات فهم سويسريون رغم أن أصولهم فرنسية وألمانية وإيطاليا وكذلك فى بلجيا وغيرها من دول العالم المتحضر فما عادت الأقوام والديانات والشعوب لها أثر فى تكون الدول فالضرورة قضت على أمريكا ذات الشعوب المتعددة وعلى سويسرا ذات الأقوام الثلاثة أن تنسى القوميات وتقوم على الدولة والنمسا الألمانية الأصل تنصلت عن شعبها إلى جنسية الدولة .

وأردف بعد تفكير عميق قائلا :

هل تؤمن بضرورة القومية لقيام دولة من الدول ؟

قلت : لابد للدول من قاعدة تقوم عليها ومادامت القومية موجودة فلماذا لا تكون القاعدة وهى خير من دولة بلا قاعدة لأن الدولة تدافع عن مصالح جماعة من البشر وتعتز باسمها وتذود عن كيانها ومادامت قومية أمة موجودة فإن إحساسها بها يدفعها للذود عن مصالحها فوجودها خير من خلق رابطة جديدة هى رابطة الدولة التى اضطر إليها أبناء سويسرا والنمسا وأمريكا اضطرارا .

فالعرب قوم واحد ولغة واحدة ولفكرهم منبع واحد وفى تاريخ العرب أمثلة

على اندماج شعوب كثيرة فى دولتهم .. وفى قوميتهم . قال لى كامل :

أين عرب أسبانيا ؟ .

قلت : عرب أسبانيا تركوها لأن محاكم التفتيش أبعدتهم عنها ولكنها لم تقدر على محو آثارهم فى اللغة والموسيقى والملابس والتقاليد وطرز البناء . ولكن الإسلام خرج بدون رجعة : فهل يفقه العرب اليوم مأساة الأندلس وينظرون إلى الأندلس الجديدة .

الأندلس الجديدة ! !

هى فلسطين ضاعت كما ضاعت الأندلس . لأن العرب تفرقوا واهتموا بمصالحهم وأخشى أن يضيع العرب كلهم أمام ضربات العدو فالتاريخ يعيد نفسه !

الآن عرفت لماذا تريد أن تقوم الدولة العربية على أساس قومى لأن (فلسطين) عربية ..

كلا وألف كلا إن فلسطين حق العرب . إنها كالعضو الغالى فهل إذا قطعت جزءا من جسمك نمت هادئ الليل مغمض العين ..

لماذا لا تتوحد كلمة العرب وهم ملايين واليهود عددهم ضئيل .

هل تعتقد أن اليهود يحكمون فلسطين وأنهم قادرون على البقاء لولا أمريكا والاستعمار الغربى .

لا أعتقد ولكن تفرق كلمة زعماء العرب وقادتهم وخوف الغرب من العرب

ومن نهضتهم المحققة دعاهم إلى خلق هذا الجسم الغريب ليكون رأس رمح لهم وموطئ قدم لقواتهم .

ولكن العرب متباغضون يحارب بعضهم بعضا ويقاتلون إخوانهم ويسفكون دماءهم ..

ثم ضحك وسكت وأخذ كأس نورية وشربها وقال أنا أبعد نظرا منك فالحب هو الذى يصلح العرب والحب يوحد قلوبهم والحب يلم شملهم ولن يصلح شمل العرب بغير الحب يحيا الحب .

وشملت صاحبي ساعة حلوة تبسم لها واعتدل فى جلسته وأردف : إلى أين وصلنا فى حديثنا مع نورية ألم نأت هنا لنسمع حديثها الحلو الشهى .

قلت له كنت تقود سيارتك وهى بجانبك وأردفت بعتاب ورقة :

وهل ينسى المحب حديث الأحبة ؟

قال أردت أن أتأكد من أنك تتابع الحديث وأنك لست مجاملى فى هذه الجلسة أو أنت ترثى لحالتى .

قلت هات ولا تطل . واستأنف قوله :

نحن أوشكنا على النهاية . فقد كنت سعيدا ومحبا صادقا ولم تكن الحياة تسع هذا الحب العظيم وبينما أنا أسوق السيارة حدقت فى وجهى نورية وكأنها ترسم صورة وجهى فى ذاكرتها . كنت أنظر فى المرآة والسيارة تنهب الأرض فى الطريق إلى لندن وخشيت أن تنسى قدوم السيارات فى الطريق الضيق ونكون ضحية سهلة

ونصطدم بسيارة مقبلة من لندن إلى بحر المانش وبخاصة أنها هى التى ترقب الطريق الذى تغير من اليمين إلى اليسار .

كانت نورية تتألق فتنة وتموج جمالا وليس من حديث لنا سوى مناجاة العواطف الصامتة وهمسات الأحاسيس الخرس وكان شعرها الكستنائى النافر يداعب الهواء فيضحك من نشوة المداعبة ويتطاير فى بهاء العبث كأنه أغنية

حلوة تهمس فى أذن الزمن تسعده بالفتنة الساحرة والنشوة العذبة والجمال الفرد .. إنه الحب هو الذى خلق كل شىء واسمع يا صاحبى .. ونظر وكأن يريد التأكد من متابعة حديثه ..

الحياة لا تقوم إلا على الحب ولن يبدع العامل فى عمله والمصور فى صوره والنحات فى تماثيله والشاعر فى خياله بدون الحب ولن تدوم حضارة وتستمر الحياة بغير الحب .

كيف عاش البشر ؟
كيف تتأثر الإنسانية ؟
كيف أبدع الفنان ؟
بالحب والحب وحده .

قلت : بالغريزة وحب الحياة كما عاش العصفور فى عشه والسمكة فى مائها والدودة فى مستقرها والفراشة فى شرنقتها والأسد فى غابته .

فهل عند السمكة حب وهل تعرف الدودة طعمه وتتذوق الفراشة حلاوته ؟

إنها تفرز البيض فى الماء ويأتى الذكر فيلقح البيض فيتكاثر السمك وكذلك كل الحيوانات الأخرى .

يصدق هذا على الحيوانات البدائية ولكن الإنسان ! ! غير هذه الحيوانات .

هل وجدت فى الحياة قصة أو شعرا . أو رواية دون حب . وهل خلت الحياة من الحب .

نعم وجدت الحياة تسير دون حب ! ! !
وأردفت أقول : أما سمعت بالصين ؟
سمعت وسألته :
هل زرت الصين ؟
كلا لم أزرها وقال :
هل زرتها ؟
نعم وعشت فيها
هل فى الصين يعيش الناس بلا حب ؟
نعم
إنه أمر غريب .

كيف .. يعيشون كما تقتضى المصلحة العامة ومصلحة الشعب الصينى كله ..

إنهم يؤسسون دولة وتاريخا . لهذا لا وقت فى الصين للحب فهم لا يعرفون وقتهم بالحب الذى نعرفه ولا يأخذون مادة حياتهم من وحيه ولا يسجلون أدبهم من منبعه إنما مصدر أدبهم ووحى شعرهم وأسس مسرحياتهم الحياة العامة بمشكلاتها وصعوباتها . .

إنها حياة غير طبيعية ولابد أن تكون هذه حالة موقوتة إذ كيف يعيش البشر ضد مسيرة الحياة وطبيعة الأشياء ..

الروايات والشعر والمسرح والفن تستوحى من الريف وحصاده والفلاح وزرعه وحيواناته ومن حياة العامل وآلاته والمصنع ومشكلاته ومن الثورة ضد الاستعمار وموقف الرجعية من تقدم الصين وانحداره أمام اتحاد كلمة الفلاحين ولضرب الإقطاع ومهاجمة العمل الفردى الذى لا يمكن أن يصل فى مستواه وإتقانه وغزارته إلى ما يصل إليه عندما يتعاون الفلاحون فى تعاونيات تحت إشراف الدولة والحزب الشيوعى أثناء حصاد الزرع وجنى المحصول. فمثلا إذا ضاع طفل فلاح أثناء العمل فوالده يظهر شجاعة نادرة وبطولة ويخفى حزنه فى قلبه ولا يظهره لمن معه لأنه سكرتير الحزب وأنه يعمل من أجل الاشتراكية وإظهار الحزن وإبداء الاهتمام بأمر الطفل معناه شل لحركة العمل لذلك يقول للفلاحين :

إذا كان الطفل حيا فما جدوى البحث عنه وإذا مات أو قتل فيجب أن تخفى الحزن حتى لا يفرح الاقطاعى وواجبنا الاستمرار فى العمل لنحيا نحن جميعا لأن البحث عن الطفل إهدار للوقت وضياع للجهد .

وفى الأدب الصينى يرسم الكاتب مظالم الإقطاع وقساوته وأسلوب الاستعباد فى حكم الشعب الصينى ويهاجم الرجعية بقساوة وبعنف لأنها تؤخر مسيرة الاشتراكية ..

وهكذا كل مسارح الصين ورقصاتهم وكذلك الاوبرا لن تجد فيها الحب بين المرأة والرجل كما تتحدث أنت عنها وكأنى بالصين ألغت كلمة الحب من المعجم

الفكرى والأدبى فلا تجد امرأة تراقص رجلا إنما الرقص يجب أن يكون جماعيا فى رقصات الحصاد وزرع المحصول وإخراج الفحم من المنجم وصهر الحديد فى مصانع الصلب وفى حرب التحرير وإنزال البضائع من عمال الرصيف .. لأن العمل الجماعى أتقن وأسرع من الفردى .

كيف يتكاثر الصينيون إذا كانت حياتهم تخلو من الحب يا صاحبى ؟ !

أتريد الحقيقة ! .. ليس فى الدنيا حب ! ! أنت تحب الأدب وتشغف به . أنت مهندس فما الذى دعاك إلى حب الأدب والعناية به ؟ .

إنها هواية ولابد للإنسان من هواية بجانب عمله ، اقرأ الأدب لأنه أقرب الفنون المعاصرة للحياة الواقعية .

ولكن لن تجد فيه المتعة التى تلقاها مع الأنثى ولن تلحف وتلح حتى الموت فى سبيل الأدب إذا منعت عنه وأبعدت عن مزاولته فما رأيت فنانا انتحر أو مات أو جازف فى حياته من أجل فنه ..

إنما وجدنا أمثلة كثيرة عند البشر المحبين ضحوا بأنفسهم فى سبيل من يحبون .

أتدرى لماذا ؟

لأن الله أودع فى الإنسان قوى لم نفهمها ورغبات لا يمكن السيطرة التامة عليها حتى يستمر الجنس البشرى سمها الغريزة أو سمها الطبيعة أو سمها الحب .

عجيب ... ! !

دعنا نستمر فى الواقعية التى تحبها ..

تصور من تحب أو من أحببت أيام الصبا والجمال الريان شوهاء مبتورة الذراع قصيرة القامة هل تحبها.

أجل أحبها.

كلا سوف تعطف عليها.. والعطف غير الحب

كيف أفرق بين الحب والعطف؟!

شيء طبيعي واضح فالفتاة الحلوة والفاتنة الساحرة تشعرك بالسعادة والزهو وأنت تسير بجانبها أما إذا كانت قبيحة فسوف تحس في قرارة نفسك بالحرج.

أنت متشائم.

كلا هذه هي الحياة.. ليس هناك حب إنما هو استمرار للحياة. فالمرأة تحرص على أبنائها ولو ولدتهم من رجل تكرهه وتغذيهم بروحها وتحافظ عليهم بكل قدرتها وإن هجرها الرجل وخانها. ومع أن الطفل يمثل الكراهية والغدر والخيانة.. فإن أمه تحبه وتحدب عليه وتفديه بكل غال ورخيص..

أكنت تريد أن نتحدث عن السياسة أم عن الحب؟

فنظر إلي وقال:

أنا لا أحب السياسة وقد بعدت عن مشكلاتها ولكنني أهتم بالإنسان بعد أن بعد المفكر العربي عنه ولم يتخذ الفكر أداة للتعبير عن إنسانيته..

قلت: إن السياسة جزء من حياتنا ويجب أن تكون جزءا من الفكر والمجتمع. والعربي هو جزء من الإنسانية وهو إنسان قبل أن يكون عربيا والعناية بمشكلاته هي التطبيق العلمي لحب الإنسان وإذا لم يكن العربي جزءا من فكرك الإنساني

فكيف تهتم بالإنسانية فإن البشرية ومضلحة العربى يجب أن تنبع من ذات العربى ومن وجوده ومن حضارته ومن ميراثه وتراثه وستجد الصلات قويه بين العرب والإنسان فى كل منطلق إصلاحى تحررى .

وفجأة سكت صاحبى .. واستغرق فى صمت .

قلت لأذيب هذا الصمت ولأذهب عنا السكون :

أين سرحت .. فضحك وقال :

أتدرى أن هذه المناقشة التى تناقش فيها هى المناقشة التى ناقشتنى فيها نورية ونحن نسير فى خط سيارات طويل بسيارتنا ولم نكن قادرين على الاجتياز فقد دخلنا منطقة منع الاجتياز . وكنا كلما تقدمنا فى السير ازداد الخط طولا وهى تلح فى المناقشة وتلح فى القول وكنت صامتا حتى إذا انفرج الطريق واتسع وتفرع وأخذت السيارات تذهب فى اتجاهات مختلفة وهدأت النفس واستردت راحتها بعد التوتر الشديد خوف الصدام قلت لها :

تعالى مكانى على المقود ..

قالت : لماذا ؟

قلت : لأريك صعوبة السياقة فليس من السهولة أن يسوق الإنسان يمينا ثم يغيرها يسارا إلا فى المجتمعات العربية . فكم من كان يسير فى خط اليمين أصبح يسير فى خط اليسار .. وتطرقت إلى المشكلة التى يعانى منها الفكر العربى المعاصر والتحولات الفكرية السريعة عند بعض المفكرين الذين يركبون كل موجة عالية من أجل منافعهم الذاتية .

قالت : لا أفهم كيف يكون هذا الإنسان سويا ؟ !

قلت : عدم الفهم خير لمن يريد أن يعيش ! !

ثم صمتنا بعدها فقد انتهى الحديث ولم نكن نسمع غير هدير السيارة وهى تطوى المسافات طيا وبلا مقدمات قالت باستفهام عجيب :

مالى أراك سرحت فى خيالك وحلقت بعيدا عن السيارة ومن فيها ؟ ولكى أبعث فى السيارة جوا حلوا . ملت عليها وداعبت شعرها الحلو الرفاف بيدى اليمنى وشعرت بموجة سعادة عجيبة لأنها وضعت يدها على ظهرى وبدأت تعبث فى شعرى وتداعبه . وكدت أترك المقود وأعانقها فقد غنت السعادة فى قطعة من جسمى . وسألتها :

ما السعادة ؟ ما حدودها ؟ هل لها وجود ! .

نظرت إلى بذهول وأخذت تتمتم :

السعادة .. السعادة ..

لا أدرى .. كلا إنها شعور جميل .. إنها متعة .. إنها شىء حلو لذيذ ..

ثم قالت : بالله عليك ما السعادة ...

قلت : وأنا لا أعرفها ..

إنما هى شىء نسبى .. إنها خيال حلو ، وأمانى عذبة وأحلام فيها نشوة وفيها رضا .. إنها السعادة ، أجل السعادة ألا تعرفين السعادة .. لا نحس بها إلا إذا ذهبت يمكن أن يحس بها السعيد كما يرى الجميل الحياة الجميلة يرى السعيد السعادة والجميل الجمال وقلت بالعربية :

كن جميلا ترى الوجود الجميلا .

وترجمت لها جزءا من القصيدة .

قالت : شاعر خيالى لأن السعادة ليست الجمال إنما تذوق الحياة والتمتع بها ..

قلت لها : هل يحس المظلوم بالسعادة ؟ وكيف يراها شعب مستعبد ؟ ستكون سعادته فى الحقد والانتقام وستكون أمانيه فى القتل والبطش ألم يكن الغزاة الذين عملوا من رءوس البشرية تلالا سعداء وهم ينظرون إلى هرم رءوس .

السعادة نسبية فالذكى المثقف لن يرى السعادة وهو يرى من دونه فى الفضل والعلم قد سلبه حقه ومكانه ؟ لأن الذكى اعتز بنفسه وما حابى أو داجى أو نافق ..

إنه واضح القصد واثق بالنفس بعيد عن الدجل والمراوغة والتهريج ..

قالت : مالك بعدت ..

قلت : الأبله سيد السعداء .

قالت : لا هذا ولا ذاك إنما الإحساس بالسعادة خير من السعادة بلا إحساس بها .. لأن الأبله لا يحس بالسعادة التى يحس بها المفكر . والذكى يحس بالأمور قبل وقوعها ويعرف الحدث الفكرى والسياسى قبل غيره وهذه سعادة وإن لم يأخذ مكانه وبذلك يكون أكثر شقاء لأنه لا يقدر أن يوقف ما يفكر به .. فهو أكثر سعادة وشقاء .

قالت :

لذلك فأنت أتعس الناس ..

ـ لا . لست ذكيا ولا مفكرا ، أنا مهندس وأنا فنان وأحب الأدب وأحس بشقاء المفكرين والأدباء .. لأنهم يزنون كل شىء بمثالية عالية والانتهازيون لهم

ميزان يختلف كل الاختلاف عن المثالية والأدب فهم يرون فى الانتهازية والاستفادة من الفرص وإن لم يكونوا من الذكاء والثقافة كما ترين . فيسعد الإنسان الذى يحوطه هؤلاء لأنه يراهم يصفقون ويطبلون فيرى الزيف حقا ويصدق .

ـ مالك وهذا النقاش ولماذا انفعلت أنت معى وأنا سعيدة ويكفى أن نعيش فى هذه الدنيا ونمتع النفس بما فيها الآن .

ـ الفرق بينى وبينك بعيد .. أنا أريد أن أفهم الدنيا وأعيش الحياة .. وأنت تريدين أن تعيشى الحياة وأن تتمتعى بها .. وشتان بين الفهم والمتعة لأن الفكر عملية شاقة والمتعة عمل سهل لذيذ . وسرعان ما قالت بلباقة وذكاء :

ـ أنت رجل لماح الفكر . والفكر وحده تعقيد للحياة لأن الذكى لن ينعم بالحياة الواضحة السهلة الطبيعية فهو يحاول أن يفهم كل شىء فهو فى تناقض وازدواج فى حياته وشخصيته . أما الرجل البسيط فلا اصطناع فى حياته ولا تكلف فى علاقاته لأنه طبيعى مقبول ..

هذا غير صحيح لأن الإنسان الذى يعامل الناس بصفاء روحى هو الذكى وهو المفكر لأنه يحس بصدق العواطف وعمق الصداقة ولا يفوت عليه المكر السيئ لأن حياته واضحة وإن كانت تلافيف فكره مشحونة بالألم ويسيطر عليه التمزق الداخلى ..

ـ لم أفهم شيئا وأنا متخصصة فى علم النفس وأنت رجل مهندس .

ـ اسمعى يا سيدتى ..

ـ سمعت وكلى آذان مصغية .

ـ أولا انتبهى إلى الطريق فسوف ندخل فى ممر ضيق وأخشى أن تداهمنا السيارة من الجهة المعاكسة .

ـ لأن مكانك فى السيارة الآن منحك حقا فقدته أنا السائق ..

ـ لا أفهم ما تريد .

ـ عندما أعود إلى الطريق السوى وأسوق السيارة وحدى أى عندما أكون فى أوربا سوف أشعر بسعادة ولكنها سوف تذهب بعد فترة لأننى مررت بتجربة متعبة ولما ارتحت شعرت بالسعادة .. وعندما تحسين بقدوم سيارة تصيحين بسعادة جاءت سيارة ولكنها سعادة لا تحسين بها ملأت قلبك بالرضا والراحة وزادت نشاطك وحيويتك وملأت قلبك بالغبطة .. أتريدين الحديث عن مثل آخر فى وطن آخر ..

سكتت لأن الحديث شردها عن الحب وعن اللقاء وسعادتها باللقاء وقالت بتبرم :

ـ قل هناك من يكون سعيدا لأنه يفكر بحرية تامة بعد حبس طويل لفكره الذى أخرجه من دماغه .. والمفكر يعيش بتعاسة وشقاء عندما تحبس أفكاره .. وحرية الفكر سعادة ولكن لا يحس بها من رزق بها ..

ـ أتريد الفلسفة .. الفكر فى حد ذاته شقاء !

ـ أعرف ما تريدين وشقاء الناس من داخل أنفسهم وفى الغرب بخاصة . فإن العلم لم يعد قادرا على اغناء النفس والفنون والمخترعات لم توصل الإنسان إلى السعادة كما كان يظن إنما داخله السأم وسيطر عليه القلق وأرهفته الحيرة والخوف من الفناء .. وسبب هذا الشقاء ساسة العالم لأنهم لا يريدون غير كراسيهم .

ـ أردت الحديث معك عن السعادة الفردية . عن ابن آدم عنك عنى أنا عن إحساسك عن إحساسي ولكنك بعدت إلى مشكلات تفكز فيها وتحملها على كتفيك وفى قلبك .

وأنطفأ مصباح الحوار لأن مصباح الوقود الأحمر للسيارة أضاء منذ نفاد الوقود . وكان علينا أن نبحث عن وقود قبل أن ينفد الاحتياطى وتحول المجرى الفكرى إلى شيء آخر قطع به جزء من الطريق حتى آوينا إلى مكان نشرب فيه الشاى ونعيد للسيارة رضاها وسعادتها بعد أن جاعت ورويناها الماء بعد أن اشتد الظمأ .. وكأننا على ظهر نجيبة تخب بنا فى الحزون السهول ..

قالت : ماذا قلت ؟ ولما ترجمت لها ذلك ضحكت وقالت السيارة أسرع من الناقة والأرض ممهدة سهلة ..

كان الجو حلوا جميلا صحوا فتركنا المقهى وما فيه من طعام وشراب للبشر وللسيارات .

وقلت : هل تودين أن تسوق السيارة وأنت سائقة ماهرة ؟

ـ أحلى ساعة أن يكون السائق بجانبي رجلا فأتمتع مرتين أو أسعد مرتين .. !

لا أسوق وبجانبي رجل أحبه

ـ كلا أجمل الساعات أن تكون بجانب الرجل فاتنة حلوة تحلم بالشرق والغرب مرة واحدة .

ـ أليست هذه هى السعادة بجانبي رجل وأنا أحبه .

ـ أجل يا سيدتى فالصلة الوجدانية تحقق السعادة الروحية فقط ! ؟ .

ـ لأن مجتمعنا المادى لم يترك هذه الصلات نقية ومع ذلك فأنا سعيدة رغم مثاليتك ! !

فأنا سعيدة أكثر من مرتين .. ! !

ـ وما هى الثالثة ؟

ـ لأنى قابلتك .

ـ هل وجدت فى حياتى ما يشابه حياتك من مشكلات نفسية ؟ .

ـ ليست فى حياتى مشكلات ، سعادتى لأننى حققت أمنية .

ـ لهذا أصبحت سعيدة ؟ معناه أن تحقيق الأمنية انتهى وسوف تنتهى السعادة وقد تكون شقاء اذا ما وجدت ما يغير الأمنية !

ـ أنت قاس

ـ أنا واقعى ، وأكبر سنا ، وأكثر تجربة .

ـ مع النساء ؟ !

ـ مع الحياة ، والنساء جزء من الحياة !

ـ هل أحببت كثيرا ؟

ـ أغيرة أم استجواب نفسى ؟

ـ لا أدرى .

وبينما نحن فى حديث حلو شهى بدأت تظهر باصات لندن تختلط بسيارات الضواحى الخضراء .. كنت فى دوامة عميقة من الفكر وصراع بين القلق والحيرة وبين هذا الحب الذى لم أكن أحسبه واقعا يوما فقد غرقت فى لجة من السعادة وغمر كل جوانب عواطفى .. ولكن ما شاهدته فى كولون من هدايا للرجال كانت

حفية بها تختارها اختيارا جرعنى مرارة الشك وسيطر على عقلى !

هل كانت نورية صادقة فى حبها ؟ أم أنها تريد زوجا وخطر لى فى الطريق ألف سؤال وسؤال . وألف رد ورد أقلب الآراء على جميع الوجوه فيغلبنى قلبى ثم ينتصر العقل وسرعان ما يخسر المعركة . أريد أن أقنع نفسى بأن نورية تحبنى لأننى (كامل) لا لأنى رجل .. وسرعان ما أحس بضحكة العقل وسخريته .

أنت مجنون .

لا أنا عاقل .

أتظن نفسك سعيدا ؟

لماذا ؟

لأنى أشعر بالسعادة تنساب إلى كل شعرة من جسمى .

أشك أنت مخدوع .

أحب هذا الخداع لأنه أراحنى وأسعدنى وأتمنى أن أكون دائما مخدوعا بمثل هذه السعادة .. مادامت حلوة عذبة جميلة فقد أعاد الخداع الرضا إلى روحى والهدوء إلى جسمى وشعرت بالحنان وأحسست بالدفء بعد سنوات من الجفاف الروحى فى الشرق .

ويحك أسرفت !

.. .. ..

إنها تربت فى أمريكا .. وإنها فى الطريق إلى أمريكا أو أسبانية وماذا عن أمريكا وأكثر المفكرين والأساتذة والعلماء جاءوا منها .. أليست هى بلد الاختراع والحضارة .

نعم والقنبلة الذرية فى هورشيما وناجازاكى .

ـ ألم تعرف فى أمريكا رجالا . ألم تملأ قلوبهم بالحنان والدفء والرضا والهدوء مثلما ملأت قلبك .

ـ لا يهمنى الماضى لى الحاضر . إنها لى وسوف تكون لى ولن تفرط بى مادمت وفيا لها .

ـ ما يكون موقفك لو اتصلت برجل آخر .

لن تتصل ولا أظنها تفكر فأنا خاتمة المطاف .

ـ أتراها ترضى بك وأنت مسافر إلى لندن من أجل حب قديم ؟ أيها الخائن ! !

ـ لست خائنا مادمت أحس معها أكثر سعادة ! .

ـ وحبك القديم ؟

.. .. ..

أجب لماذا اعتراك الذهول والسكوت ولم وجمت ؟

* * *

كان الحوار الداخلى يأخذ مسراه الجاد وكنت أفكر بعمق ظاهر دون أن أعرف أننى استغرقت وأننى ذهلت عنها وعن نفسى .. ولو لم يكن الطريق مستقيما لحدثت كارثة وسرعان ما انتبهت وقد تصبب جسمى من العرق وبدأت حباته اللؤلؤية تتساقط على صدرى وأخذت نورية منديلها وأخذت تمسح العرق عن وجهى ..

ومررت على جوسق تليفون فأوقفت السيارة ودخلت جوسقه وتأكدت من أن مكانى محجوز ونسيت أن نورية معى .. وفجأة خطرت فى ذهنى خاطرة آخذها معى ..

ولكن لما وصلنا لندن استأجرت لها مكانا فى فندق امباسادور فى جوار شارعى ..

نظرت إلى كامل وقد أخذ منه الشراب مأخذه وأمسك الكأسين بيديه وسرعان ما سقطا بما فيهما من شراب على فراش الغرفة وكانت دموعه تجرى بصمت مع شهقات البكاء.

ـ قلت له علام البكاء يا كامل ولماذا كل هذا الألم . وأخذت أعينه على خلع ملابسه وأدخلته فراشه وقبل أن أودعه قال :

هل تظن أنى سوف أنساها ؟ لا سوف أراها فى المنام فهى معى فى الشارع والبيت والجامعة وكأس الشراب والحائط وأراها تصعد مع زفراتى وترسمها دموعى .

إنها حياتى ومتى أنسى حياتى ولما هدأت حركته فى فراشه خرجت وأقفلت الباب لأتركه يرتاح جسمه وتستقر روحه بعد هذا العناء القاسى .



ذكـــريـات

فى ساحة الجامعة بين معهد الدراسات الشرقية وبين كلية التربية لقيت (كامل) فقال :

أسمعت ؟

ما أسمع وهل هناك أخبار ؟ أكثر مما حاق بوطننا ؟ !

وأردفت :

لا يوجد خبر يفوق ما عمله الإنكليز بنا

وأكمل : والفرنسيس واليهود ..

ـ الإنكليز رأس المصائب .

أعرف عداءك للإنكليز منذ كنا طلابا .

ـ ألا يستحق الاستعمار الإنكليزى العداء والكراهية ؟

لم أقل إنه لا يستحق، كل استعمار يستحق اللعنة مهما جاء بأثواب جدد وأسلوب ناعم .. لكنك بدأت بالإنكليز مع أن اليهود هم أصل البلاء .. وإسرائيل بنت بريطانية البكر .

ـ كلا يا صاحبى إن الإنكليز قمة المصائب التى حاقت بالوطن العربى كله .

ـ هذا منطق الحياة . القوى يسيطر والضعيف يُستخدم ، ليس هناك حق

إنما هناك قوة .. ولليهود أساليبهم فى إقناع الغرب والوصول إلى مصالحه لأنهم فهموه فاستغلوه فقد أقنعوا إنكلترا فأعطتهم وعد بلفور لما طرد السلطان عبد الحميد هرتزل شر طردة وأعانوا الحلفاء على استعمار الشرق وتقسيم الامبراطورية العثمانية .

وكان العرب فى سبات لايعرفون مايحيق بهم من مكر سيئ وعندما تعاون العرب مع بريطانيا وفرنسا كان جزاؤهم معاهدة سايكس ـ بيكو التى قسمت بلادهم دولا وامارات وحكومات ظاهرها عربى وباطنها غربى ..

ـ ألا تعرف أن الصهيونية العالمية هى وراء الاستعمار .

ـ أعرف ذلك .

ـ هل تعرف بأن «صديق» العرب الكبير لورنس دفع العرب لمحاربة الدولة العثمانية للقضاء على العرب أنفسهم وعلى الامبراطورية التى كان يخاف منها الغرب وبذلك قضى على الوحدة الإسلامية وعلى الفكرة العربية .

ـ لا تموت الفكرة العربية مادام العرب فى الحياة ، ولكن الغرب يخاف من الحضارة الإسلامية والتراث العربى وحسب بأنه قادر على القضاء عليهما بالتفريق بين العرب وبذر الكراهية بينهم .

ـ أرى العربى بعيدا عن حضارته خائفا من تراثه مترددا فى دراسته فكل من اعتنى بالحضارة الإسلامية والتراث العربى يوصم بالتخلف والرجعية ومن أحب وطنه وأمته فهو متخلف متعصب ، وعندما يدرسون هم تراثهم ويعنون بحضارتهم فهم تقدميون متحضرون .

ـ خلقوا حكومات تسير فى ركابهم وبثوا الفرقة والقطيعة بين العرب وسادت تناقضات عجيبة بين الأمة الواحدة وكثرت الانتهازية والزلفى والرياء وشك العربى فى حاضره وبدأ القتال بين الأخوة والشتائم بين الجارين .

ـ ما هذه المناقشة فى هذا الصباح هيا إلى عمل إيجابى فنحن فى معركة ضارية ومصر تقاتل بضراوة وإذا غلبت مصر فلن تقوم للعرب بعدها قائمة .

ـ إن لهذا البيت ربا يحميه . ورحم الله حافظا القائل : ـ

أنا لو قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى
ما رمانى رام وراح سليما من قديم عناية الله جندى
كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى

ـ علينا الآن أن نعمل حسب طاقتنا وبسرعة وأرجو أن تترك عملك الجامعى هذا اليوم من أجل العرب ومصيرهم .

انتقض كامل كالأسد الجريح قال :

ـ هل طلبتم منى المساهمة فأبيت . أنا أخدم بلدى جميعه لقد ساهمت فى يوم فلسطين والجزائر وجميع الحفلات التى تقارع الاستعمار وتخدم وطنى الأكبر ، ورفضت الهجوم على الشعوب العربية والأنظمة المختلفة .. لأنى لست بوقا أو لسانا لنظام أو أداة من أدوات الحكم يجب أن يكون العمل لصالح العرب كلهم داخل بريطانيا نترك البغضاء والشحناء ، إن عقيدتنا واحدة وإيماننا بأمتنا ووحدتها واحد .

ـ أرجو ألا تثور .. هيا هيا .

وأسرعنا إلى مكان الاحتفال وأخذنا نوزع النشرات على طلاب الجامعة وندعوهم إلى الحضور إلى الطرف الأغر حيث يحضر نائبان من مجلس العموم يتحدثان فى الاجتماع ويناصران قضية العرب ويخطبان ضد أعمال الحكومة الإنكليزية وقد أعدت المنشورات لتلائم الفكر الغربى منها .

نريد السلام

أوقفوا الحرب

لا تقتلوا أولادكم فى سبيل الباطل .

وأخذت عددا من هذه المنشورات وكان معى زميل إنكليزى ما كان يفارقنى طوال أيام الجامعة وكان يعتمد على فى دراسته اللغة العربية وأصبحنا صديقين . قلت له :

أنا ذاهب أعلق هذه النشرات فى كليات أخرى ثم أذهب إلى الطرف الأغر وأرجو أن تأخذ هذه النشرات وتعلقها فى حجرة الطلاب والنادى .

وانفض الاجتماع وعدنا إلى الجامعة ولقيت صاحبى ولم أجد منشورا واحدا معلقا وسألته بلهفة : أين النشرات ؟ فأخرجها ببرود إنكليزى وسلمها لى فعلقتها وجلست معه وأخذت أهاجم سياسة إيدن بمرارة وألم . ولم أبق فى جعبة القول شيئا إلا قلته وكان صاحبى ينصت بأدب وبعمق ففرحت لهذه العناية والإنصات ومن ثم أعلن التصويت على أعمال إيدن بين الطلاب فكانوا صفين ، الصف الأول يوقع بورقة ضد سياسة إيدن والحكومة الإنكليزية ، والصف الثانى يوقع مع هذه السياسة .

كنت جالسا أشرب الشاى مع صاحبى حتى يحين وقت الإدلاء بصوتى فقمنا معا فوقع صاحبى مع إيدن ووقعت ضده .

وعدنا إلى أماكننا ولم يذكر شيئا أو يعتب على أو حتى أن لهجته فى الحديث لم تتبدل . وعرفت لمَ لمْ يعلق النشرات وكان عجبى أشد كيف أنه لم يمزقها ويمسك بخناقى ؟ ولو اختلف طالبان من العرب لجر هذا الاختلاف الفكرى العداوات .

تركت الجامعة وذهب كامل إلى بيته وأخذت القطار الذى يسير تحت الأرض لأعود إلى كامل ولكن ما دار فى الكلية وانشغالى بمصر أخذنى بعيدا فى الهواجس والتفكير وشملنى الاضطراب والحيرة فلم أعد أرى شيئا حتى وجدت نفسى وتنبهت لأن القطار خرج إلى سطح الأرض ووصل ضواحى لندن .

وعدت بالقطار نفسه إلى دار كامل بعد أن ساقتنى هذه الذكريات إلى سنوات الدراسة ونسيت بها نفسى وأنا أفكر بكامل الطالب وكامل المحب النضر الحديث الطرى الأسلوب .



الوداع

كنت أعطيت صديقى ليلة كاملة يستريح فيها من المعاناة التى آلمته فقد كان مجهوده الروحى عنيفا ، وكان ندمه على ما فرط كبيرا ومع جمال قصته ومأساته سعدت بها لأننى كنت أستمع إلى كامل وهو يتحدث عن سر من أسراره التى كتمها عن كل إنسان ولا يعرف سره سواى ولم تكن التعلات التى جاء بها واضحة ولكنى كنت أسخر فى قرارة نفسى من إنسان ابتلى بالغرب وابتلى به ويعشق هذا العشق ولعل الحرمان الشرقى القديم آب إليه لأننى لم أجد فى الغرب حبا عذريا ، لأن الفتاة تسخر من هذا الحب إذ كان فى سن النضج ولعل سفر نورية وإحساسه بفقدها أثر فيه ولعلها تركته لأنه خيالى لا يساير منطقها الغربى الأمريكى .. وحبها الأسبانى العارم .

ذهبت لأكون معه ولما طرقت الباب فتحه وكانت آثار الإعياء والإرهاق والتعب تصرخ فى عينه ووجهه ومحياه . فقد كسته بلون باهث ذابل . فقال ونحن أمام الباب :

ـ لماذا تركتنى وذهبت ؟

ـ لأنك سكرت ولأنك تحتاج إلى النوم والراحة ..

ـ صحوت بعدك وبقيت ساهر الجفن ساهد الروح .

ـ ألا تزال تعيش فى الوهم ؟ أتوجد امرأة فى الغرب مهما كانت فتنتها

وملاحتها تستحق هذه الدموع وهذه الأحزان ـ عد إلى رشدك يا صاحبى. ثم إذا بى أغضب وأعنف وأنهال عليه لوما وتقريعا وبينما أنا فى غضبى ابتسم فى وجهى ابتسامة الطفل البرىء وقال :

إنه وهم حلو، وحب سعيد، وشقاء لذيذ، وألم جميل. قلت: مسكين. إن الذين يعيشون بالعذاب لا يحسون به ولا يتذوقون طعم السعادة .. أين فلسفتك فى السعادة ؟ وكأنى بك لا تحب العيش إلا فى الشقاء وقد استمرأت العذاب وجنيت على نفسك وعليها ومادمت أحببت الشقاء فعش به .

لكن البسمة لم تفارق شفتيه ولم تربد أساريره وأمسك بى فى قوة وأجلسنى على الكرسى وقال : أجلس فما سمعت النهاية .

برمت بحديثى وأنا أخلص فى القول لن تسمع منى حراما أيها المادى الكافر بالروح وحلاوتها الجاحد للمثالية وسعادتها . وأخذ يتدفق حرارة وألما ، ولكنى لم أتركه يتحدث بل أرغمته على حلق لحيته وارتداء ملابسه لأذهب به إلى حدائق (هايد بارك) مادام الجو صحوا جميلا ، وقلت سوف أسمعك وأستمع إليك ونحن نسير فى الحدائق وسوف أمتع عينى بالغيد الحسان ولا أشك فى أن فيهن من هن أكثر جمالا من نوريتك فى القوام والجسم والفتنة والسحر والشعر.

وما أن خرجنا إلى الشارع حتى مررنا بفندق الامبسادور فرجانى أن يعرج عليه وتحدث مع المشرفة وعاد وهو يضحك قائلا :

ـ أتدرى ماذا صنعت ؟ .

ـ قلت لا ؟

قال حجزت غرفة نورية التى كانت تسكنها ؟ !

ـ هل تعود نورية ؟

لا وإنما سوف أنام أنا ليلة واحدة فيها وأفترش فراشها الذى نامت فيه وأعيش معها فى الأحلام . وسوف آتيك فى الصباح فلا تترك دارك .'

ـ قلت : مجنون تركتها وهى فى أحضانك وترتمى عليك ، وتذهب إلى فراشها هل أنا مثلك مجنون !

ـ مجنون والله مجنون .. وأردف : «ما لذة العيش إلا للمجانين» .

ـ لم لم تقل : قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم .

ـ قال : تركت الصدر لك لأنه يمثلك وأخذت أنا ما يهمنى منه .

مشيت وصاحبى حتى وصلنا إلى النوافير الجذلى وقد جلس الناس حولها يتمتعون بأشعة الشمس ويراقبون الطيور الطليقة والبط السابح ويمتعون أنفسهم بالجو الجميل يفترشون الحشائش وبلا مقدمات قال :

هذه المحلات زرناها وعشت فى لندن أجمل أيامى وذهبت معها بسيارتى خارج لندن ولا تسل عن المحلات فأنا لا أعرفها وقد كان الشك يعذبنى ونفسى وكأنها كانت كالسفينة التى أخذها الموج ولا تعرف لها مستقرا وكنت الموج نفسه الذى يرتفع وسرعان ما يذوب فى البحر فلا أجد نفسى من حيرتى أأتزوجها ؟ أأتركها ؟ كنت بين أمرين أحلاهما مر؟ وكانت أسرع برما منى فقد كانت لها آمال واضحة تقف على شواطئ ظاهرة الضفاف وكنت بلا أمل ولا جرف .

وفى يوم من أيامى معها تركتها فى الفندق لأعود إلى دارى أو الشقة التى

كنت أريد أن أتزوجها فيها وفى عودتى قابلنى جوسقا فيه التليفون وبلا شعور أو إرادة ظاهرة اتصلت بإحداهن ولم أجد نفسى إلا فى دارها وكانت متعة روحى وجسدى أيام الشباب فذهبنا سوية وقضينا ليلا أحمر الجلباب راقص الأحلام خمرى الشذا ولم أعد إلى الدار إلا مع بسمة الفجر للآمال ولم أحس أين نمت لأننى لم أخلع ملابسى ونمت بها وفى السابعة صباحا دق الجرس بعنف فقمت مرعوبا فوجدت نورية فى الباب وأنا فى كامل ملابسى وكانت لحيتى طويلة وشعرى منكوشا والرباط مهدلا .

فوقفت وعلى وجهها ابتسامة ساخرة غاضبة وقالت : أخارج أنت الآن ؟ أنت ترتدى ملابسك كاملة ثم تحولت إلى إنسان مرعب مخيف وأخذت ترتجف من الألم وقالت :

أين كنت البارحة ؟
كنت مدعوا ..
ـ أنت جئت لتنام الآن ؟!
ـ سئمت الوحدة فخرجت مع ضيف طارق .
لم لم تأت لى وتأخذنى معك وأنا جئت لأجلك .
ـ لأنى أردتك أن ترتاحى .
ـ هل تظن الخروج معك مشقة ؟
ألم أكن أجرك جرا إلى السهر معى ؟
ألم أكن ألبسك ملابسك وأسحبك من فراشك ؟
ـ نعم وكانت سعادة حلوة .

– لو كنت تحس بالسعادة لما تركتني وخرجت مع ...

ولم تكمل عباراتها فقد ارتج عليها وأحسست بأنها مخلصة فى كل ما قالت وأنني ذهبت وراء لذة عابرة واسترجاع ذكريات باهتة ونزوة سخيفة.

ثم نظرت إليها بضراعة وانكسار وكأنني طفل كسر لعبته الجديدة لأن المنطق لم يسعفني ولأنها كانت على الحق وما أردت أن أكذب وجلست ووضعت رأسى بين يدى وأسلمت نفسى إلى الحزن.

وبهدوء عجيب أعدت الفطور وهيأت لى الحمام وناولتني أدوات الحلاقة ثم نامت على الأرض وتركتني فقد كانت بحاجة إلى نوم أكثر مني.

وخرجنا عند منتصف النهار نجوب الأماكن التى كنا زرناها، كانت تقف عند كل زاوية وتسير فى كل حنية سرنا بها وأخذتني إلى الكلية حيث أكلنا أول وجبة فى لندن.

ووقفت عند باب الجامعة ووضعت يدها تحت إبطى وكنت هائما بين السعادة والحيرة والخوف..

قالت: هذا اليوم لى ولن أتركك تهرب.. وعدنا إلى الشقة وبعد الغداء نامت واستراحت وأخذتني إلى مكان جميل، وقضيناها ليلة ممتعة معربدة فى رقص وكانت ترقص رقصا لم أر أحسن منها فنا ولا أبدع إيقاعاً وحركة ولما سكرت وفقدت الوعى نامت على صدرى قالت:

أين كنت البارحة؟

جئت إليك خمس عشرة مرة كنت أتصل بك كل نصف ساعة وكان

التليفون يرن ويرن ولم أنم الليل كله وكنت مشتاقة لأهب لك روحى كلها ولكنك لا تستحق غير الكراهية لأنك خدعتنى فانخدعت بحبك .

أحببتك من كل شعيرة فى قلبي وها نحن نفترق لأنك لا تعرف السعادة ولأنها مرت عليك فلم تمسكها حتى بأصبع من أصابعك .

وبلا شعور قلت لن يفرق بيننا حتى الموت .

وبسخرية جامحة قالت :

الطيارة سوف تفرق بيننا ، ثم أربدَّ وجهها وتدفق القول على لسانها وقالت :

اسمع .. اسمع . اسمع وكررتها ثلاثا وفى كل مرة لها معنى أنا مسافرة إلى جهتى .. وسوف أتزوج لا تندهش ، لا تنظر إلى ببلاهة فرصتك ذهبت ولن تعود .. أنت متردد .. وتخاف .. أنت من الشرق وأنا من الغرب وكانت شجاعتى أكبر من شجاعتك سوف أكون حلما من أحلامك وستكون طيف سعادة أحيا بها طول عمرى .

أعرف أنك عشت فى لندن ولك فيها صواحب وقد عرفتك عنهن .. كنت أظنك تقابل تضحيتى بالرضا فتتركهن من أجلى وكنت على استعداد لترك خطيبى من أجل السعادة التى نلتها معك .. وسكتت وبغضب قالت :

اذهب إلى الإنجليزيات الباردات الدم الثقيلات الظل القليلات الوفاء .. هل تصدق أن إنكليزية تخلص لك مثل إخلاصنا فى أسبانيا ..

سوف تندم على فرصتك أن كنت حقًا تحبنى وسوف تنام بثيابك عندما اسافر بالطائرة . وارتمت تجهش بالبكاء وأخذتها بين أحضانى وكان الليل قد ذهب أكثره وكانت الخمرة قد أخذت طريقها فجلسنا على الرصيف ثم نمنا عليه وكان الشارع خاليا ومر الشرطى ولم يكترث بنا وأصعدتها إلى فندقها ولما نزلت قالت ربة النزل :

لماذا تركتها وحدها وبنظرة ساخرة ماكرة قالت : لها يومان تنتظر .. آه يا رجال ..

عدت فى سكرين وذهولين ولم أقدر على خلع ملابسى ونمت على أرض الغرفة وبالحذاء اذ لم أكن قادرا على خلعه فقد تاهت روحى بين الحياة والموت .

وفى الصباح ذهبت إليها ووجدتها قد جهزت حقائبها فقالت :

هل تحب أن تودعنى فى المطار ..

والغريب أن حواسى قد تبلدت وكأنى لا أودع أحب شىء لدى وكأنى أودع إنسانا مفروضا على .

وسكت وأطرق صاحبى .

قلت له : ويحك .

وماذا بعدها . فلم يلتفت إلى وإنما أخذ يرمى بفتات الخبز إلى البط وهو يتزاحم على اللقيمات الطافية . أتريد أن تعرف الباقى ؟

ــ أعرفه وإنما أقول ما بعد ذلك فقد رأيتك فى جنونك وأنت تحدق فى الفضاء تطلب النجدة من المجهول .

وعدنا إلى الدار وأعاد على المنظر نفسه : كأسان من الخمرة ودموع تسيل وكل مرة ينظر فى ساعته ويقول كنا فى هذه الساعة فى المكان الفلانى وفى هذه الساعة عملنا كذا .

قلت : هل نذهب حقا إلى الفندق قال حتى أنتهى من كأسها . وذهبت معه إلى الفندق فقد كان يترنح وأخبرت ربة الفندق أن تتصل بى إن حدث حادث له ولما دخل الغرفة تمرغ فى أرضها ونام فى الفراش وذهب إلى الحمام وكان كالمجنون كلما شرب كأسا زاد جنونا حتى خدر ودخل الفراش وآثرت أن أتركه ليرتاح .

وسكبت ما بقى من شرابه فى المغسله لئلا يعاود الشراب ويعاوده الإرهاق الروحى .

بعد عشرين سنة

عدت إلى بغداد وانشغلت بأمور الحياة وبأعمالى فى الجامعة ولم يكتب لى كامل إلا لماما وفى المناسبات وكنت أقرأ عن تفوقه وتقدمه ما يسعدنى ويملأ نفسى وأسمع من زملائى ما يزيدنى فخرا به فقد أصبح من أشهر المهندسين وعهدت إليه قضايا كبيرة وكثيرة وكم من مرة ذهبت إلى القاهرة ولم أكن أراه وكأن الصدفة العجيبة كانت تحجبه عنى وكنت أشد كسلا منه .

وبينما كنت أسير فى شارع قصر العينى فى طريقى إلى معهد الدراسات والبحوث العربية لإلقاء محاضرات فيه استوقفنى شخص وسلم على بحرارة واحتضننى .. أحسست بأنه إنسان حبيب ولكن لم أعرف بأنه كامل إلا بعد أن تفرست فى ملامحه وملأنى صوته ورنت ضحكاته الحلوة فى أذنى .

لبس النظارات وأبيض شعره وكبر جسمه ولكنه مازال قوى الجسم والبنيان ، شاب الروح والإيمان ودعانى معه :

قلت بعد المحاضرات .

قال أتحب الغذاء أم العشاء على قصة نورية ؟

فضربت على كتفه وقلت : نورية أيضا أما تنساها ؟ أريد قصة نورية بلا عشاء .

قال أجمع لك الإثنين .

وجاءنى فى المساء بسيارته الجديدة وذهبنا إلى شاطئ النيل التى كانت همساته تنساب فى يوم من الأيام فى روحي وجماله يتدفق فى مشاعرى وهل هناك أعذب من النيل روعة وأحلى منه فتنة .

كان مع كامل غلاف جميل اعتنى به عناية ظاهرة وطواه بكل رقة ولما فتحه قبله وقال هذا مكان أصابعها اقرأ هذه الرسالة :

السبت فى ١٥ تشرين الأول ١٩٦٢

بالصدق يا عزيزى إن ما بى منك أكبر من أن تسمى حبا . إنها دنيا أنا وحدى أحياها . وأتملى محاسنها وأغترف من نبعها إنها أنت يا صديقى ولا شىء إلاك .. !

لقد نقلتنى يا صديقى من عالم إلى عالم . من فراغ هائل كنت أحسه فى كيانى وفى كل ذرة من ذرات نفسى إلى نشوة سماوية أراها ملأتنى وغمرت أسبابى فأنا اليوم منها بين سعد غامر ووحى عذب جميل .

لقد آلمنى يا صديقى وحز فى نفسى أن أقرأ لك فى أثناء رسالتك الرقيقة مثل هذا «إنه وجدها وقد صارت بينهما مسافات من القدر وأجيال من الدهر ..» !!

أجل لقد آلمنى وحز فى نفسى يا حبيبى أن تحدثك نفسك الحلوة الصافية أن يكون بينى وبينك ما أسميته «مسافات» و «أجيال» .

إن الذى بيننا يا صديقى يهزأ بالمسافات والأجيال وإن الذى بيننا فوق المكان والزمان .. إنها يا صديقى صلة الروح بالروح ولن يقف بين الروح والروح حائل .

إنها يا صديقى واحدة شطرت شطرين يحملها هذان الجسدان الفانيان .. إنهما تنجذبان كل إلى الأخرى مادمنا فى الحياة .. وفى بعد الموت .. !

فإنك إذن يا حبيبى .. أنت معى رغم كل الحدود وأنت لى معنى الحياة والوجود وإننى على مقربة منك ؟ ! يا صديقى إنه قلبى بين يديك وقلمى أستلهمه من عينيك وحياتى كلها وقف عليك .. وهل بعد هذا كله زيادة لمستزيد ؟ !

لقد ملكت يا صديقى مالم يكن يحوزه أحد ولن .. ! وأقسم .. !

اصعد معى يا حبيبى فى سامق الأجواء وتعال نرتفع بروحينا عن هذه الأرض ، ولا تقل بعد اليوم أنها ليست لى .. ليتها كانت لى .. ! إنها هى بكيانها بروحها بقلبها بفكرها لك وحدك دون غيرك .. أما جسدها الفانى فهو ملك الأرض ولن يكون إلا للأرض كلما أردت .

يا صديقى هونك بعض التجنى ولا تلتمس فى ما عرفته فى أخرياتك الإنكليزيات .

انظر إلى كما أنظر إليك وامنحنى من نفسك بعض ما منحتك منى .. امنحنى منك مالا يستطيع أن يمنحه إياى سواك .

كن لى كما كنت لك أنت يا من أوحيت لى بما عجز دونه الآخرون ..

وأنت يا حبيبى .. أنت ؟ .

أتراك ما تزال ضنينا على بالكلمة المطمئنة والوعد المؤكد وتلبية أيسر الرغائب وأهون المنى .. ؟ !

-أمازلت أيها الحبيب باخلا على بالنزر اليسير..

أنا التى غمرتك بالوفر الكثير.. ؟
أمازلت يا حبيبى أما زلت .. ؟

نورية

فنظرت إليه فرأيت صاحبى مطرق الرأس حزينا قلت : أين الرسالة التى أرسلتها لها قال : ومن أدراك بأن عندى هذه الرسالة قلت : لابد أنها غضبت منك وقاطعتك وأعادت لك رسالتك مع هذه الرسالة لأنها تحبك وأنت تخاف من حبها لأنها صادقة ومخلصة وأنت متردد فزع من أمر ، فأخرج الرسالة وقرأ لى منها :

عزيزتى نورية

الآن وقد ذهب الجميع ولم يبق لى من عمل سرحت ببصرى خارج الحجرة فتألقت صورتك الحلوة ولق العينين الساحرتين ورأى شعرك الحلو الجميل ..

لا أدرى هل تحسين ما يحس إنسان لملم جراحه ونسى حلم حياته وعاش من الدنيا عمره وئيد الخطى ، مثقل الأمانى ، إنسان كان قد وضع أنغامه على عتبة الحب ولكنه نكص ولم تبق له من تلك الأمانى غير نغمات أنيقة مشرقة بعثت فيه الهمة نحو التغرب .

وبعد أن مضت السنون مكدودة الخطى وجدها وإذا الجرح القديم الغائر الذى اندمل يثور ، إنه وجدها وقد صارت بينهما مسافات من القدر وأجيال من الدهر فأخذ يتملى الطلعة الحلوة ويحلم فى عينيها الوادعتين الرائعتين فإذا صوت من قرارة الماضى السحيق ينغم له حاله ويجيب إليه حبه .

أليس هذا حبك الغالى ؟ .
وأمانيك العذاب ؟

ألم تفعل السنون فى القلب وقد مرت به حسناوات الشرق والغرب أم يخمد ذلك الأوار وكيف تجمع فى ضمير الزمن هذا الحب العظيم ؟ ! .

إنه لقيها وكأنه طفل صغير فضاع فى تيار الحب العظيم ..

وكان اللقاء غريبا على نفسه ، كان أرق مما رآها وأحلى مما عرفها وأجمل مما تصورها ..

أليس هذا الأمر من العجاب ؟ وهذه الأخيلة متنافرة كيف يحيا الحب الذى تمر به سنون وأعوام ألم يقل الشاعر العربى :

إذا رمت أن تسلو حبيبا فخله ... وراءك أياما وعد الليالى

والوقع أن هذا الحب الذى حدثنا الشاعر عنه لم يكن قد تسربل فى القلب ولم يفارقه وأنما هو حب المسافر أو حب الغربة أو حب الحاجة أو حب الخوف ذلك هو الحب السريع الذهاب . وقد يكون من الغريب على فى مثل سنى من الاتزان والرزانة ومن العلم والهدوء أن أكتب مثل هذه الرسالة .

ولعل المشكلة هى أننى أختار الكلمة وأخشى ترك الكلمات تسرى جزافا وما أدرى ما أسميه هو الخوف أو الوجل أم الصدق فى ارضاء المحبوب وصدق البهاء زهير :

أيها السائل عن وجدى بها ... إنـه أعـظـم مما تـزعـم
ولقد حدثت عن شرح الهوى ... أنت يا ربى بحالى أعلم

كامل

وأخذ الرزمة منى فسقطت ورقة بها عدة تواريخ :

١٤ نوفمبر

٢٥ / ٤ / ٦٢

١ حزيران

٢٥ /

٤ / ٤ / ١٩٦٢ المولد الجديد .

وقال يكفى ما قرأت ولكن خير رسائلها التى وصلتنى تلك التى جاءت بعد عبورنا قناة السويس فقد قالت :

عزيزى كامل

آمنت بأن العرب سوف يكون لهم مكان فى التاريخ المعاصر ، وآمنت بعد هذا الزمن الطويل بأن إنسانا مثلك خير من مثلّ العرب فى آمالهم وأحلامهم ولا أخفى عليك أن يوم الهجوم الأول والثانى وحتى الثالث كنت أشك فى قدرتكم على العبور وانتزاع النصر من اليهود فقد أوهمونا بأنهم القوة التى لا تقهر وأنهم شرطى الغرب المتحضر على العرب المتأخرين فإذا بالشرطى يقبل يد العربى ويشهد له بالبطولة فيما يصنع وبالشجاعة فيما أرى وإذا بالعالم كله يقف إجلالا ويصفق بحماسة للنصر الكبير الذى انتصر به الجيش العربى المصرى على اليهود .

وأن كان لى من قول فأرجو أن تتذكر تلك المناقشات التى كنت تثيرها والتى لم أكثرث لها وأن النبوءة الصادقة التى تنبأت بها بأن العرب سوف ينتصرون قد تحققت فأعتذر عن عدم الاكتراث وأقدم لك التهانى بهذا النصر الذى ملأنى فخرا بأمتى العربية .

نورية

وأعدت الرسالة إلى الظرف الجميل ووضعها بعناية وقال: أتدرى أن هذه الرسائل آخذها إلى كل مكان أسافر إليه وأقرأها فى كل محل أحله لأنها كالتميمة والحارس لى وأصبحت أتفاءل بها ولا تندهش إن قلت لك إننى رأيت نورية فى القاهرة مع زوجها الذى أرسلته الحكومة الأسبانية لعمل فى القاهرة ولم أتحدث معها كيلا أحرجها وأنخر الجرح القديم لأنها نسيت وشأن الحسان النسيان ..

نظرت إليه وقلت :

مجنون .. والله مجنون .

من مؤلفات الدكتور يوسف عز الدين

١ ـ الشعر العراق فى القرن التاسع عشر خصائصه وأهدافه

بغداد وزارة التربية ١٩٥٨

القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥

القاهرة دار المعارف ١٩٧٧

٢ ـ الشعر العراق الحديث والتيارات السياسية والاجتماعية

بغداد وزارة التربية ١٩٦٠

القاهرة الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥

القاهرة دار المعارف ١٩٧٧

٣ ـ خيرى الهنداوى حياته وديوان شعره

القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٥

بغداد جامعة بغداد ١٩٧٤

٤ ـ فى الأدب العربى الحديث بحوث ومقالات نقدية

بغداد جامعة بغداد ١٩٦٧

بيروت والقاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣

الرياض دار العلوم ١٩٨١

٥ ـ داود باشا ونهاية المماليك فى العراق

بغداد دار البصرى ١٩٦٧

بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦

٦ ـ **مخطوطات عربية فى مكتبة صوفية الوطنية**

بغداد المجمع العلمى العراقى ١٩٦٨

٧ ـ **الاشتراكية والقومية وأثرهما فى الأدب العربى الحديث**

القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٨

بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦

٨ ـ **شعراء العراق فى القرن العشرين جـ ١**

بغداد جامعة بغداد ١٩٦٩

٩ ـ **فهمى المدرس من رواد الفكر الحديث**

القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٦٩

بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦

١٠ ـ **الرواية فى العراق تطورها وأثر الفكر فيها**

القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٧٣

١١ ـ **القصة فى العراق جذورها وتطورها**

القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٧٤

١٢ ـ **تطور الفكر الحديث فى العراق**

بغداد دار المناهل للترجمة والنشر ١٩٧٦

١٣ ـ **إبراهيم صالح شكرو بواكير النثر فى العراق**

القاهرة معهد الدراسات والبحوث العربية ١٩٧٥

١٤ ـ **قلب على سفر (رواية)**

القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨

القاهرة دار الشروق ١٩٨٦

١٥ ـ مخطوطة شعر الأخرس

بغداد مطبعة العاني ١٩٦٢

١٦ ـ النصرة في أخبار البصرة (للأنصاري)

بغداد المجمع العلمي العراقي ١٩٦٩

بغداد جامعة بغداد ١٩٧٦

١٧ ـ في ضمير الزمن (شعر)

الإسكندرية . دار الطباعة الحديثة ١٩٥٠

القاهرة مطبعة الرسالة ١٩٧٠

الرياض دار أمية للنشر والتوزيع ١٩٨٥

١٨ ـ ألحان (شعر)

الإسكندرية دار الطباعة الحديثة ١٩٥٣

القاهرة دار العلم للطباعة ١٩٧١

الرياض دار أمية للنشر ١٩٨٥

١٩ ـ لمحات الحياة (شعر)

بيروت دار العلم للملايين ١٩٦٠

القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧

٢٠ ـ من رحلة الحياة

بغداد مطبعة أسعد ١٩٦٩

القاهرة دار الإبداع الحديث ١٩٨٥

٢١ ـ fn R.A.Q.I Poetry

القاهرة المطبعة الثقافية ١٩٧١
٢٢ ـ R.A.Q.I Poetery And Soicial life
بغداد مطبعة العانى ١٩٦٢
٢٣ ـ فصول فى الأدب الحديث والنقد
الرياض ـ دار العلوم ١٩٨١
٢٤ ـ Songs From Boghded Lamda 1984
٢٥ ـ الحياة الفكرية فى العراق
القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥
٢٦ ـ قضايا من الفكر العربى
القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨
٢٧ ـ الشعر العربى الحديث جذوره الاجتماعية وعوامله النفسية
نادى جدة الادبى ١٩٨٦ .
٢٨ ـ التحدى الحضارى والغزو الفكرى
الرياض دار أمية للنشر والتوزيع ١٩٨٥

الفهرس

رقم الايداع . ٨٨٣٩ ٨٧
الترقيم الدولى : ٩ـ ١٦٨ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٧٧٤٨١٤ ـ ٧٧٤٥٧٨ ـ برقيا : شروق ـ تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣ ـ برقيا : داشروق ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

هذا الكتاب

حرصت فى هذه الرواية أن أتجاوز مرحلة القصة الحديثة التى سار على نهجها الكتاب فجمعت فيها الرواية والقصة والمقالة والحوار الداخلى والعوامل النفسية والاشارات اللغوية والتعبير باللفظ الموحى والحوادث الدالة على خطوات المجتمع العامة ، سواء فى السرد أم فى مسيرة ابطالها أو الاستيطان الداخلى فى الحوادث .

د . يوسف عز الدين